

الفصل الثامن عشر

الأجناس الثلاثة التي تسكن أقاليم الولايات المتحدة : أحوالها الحاضرة وما يحتمل أن تكون عليه في المستقبل

هأنذا أنجزت المهمة الأساسية التي فرضتها على نفسي ، فقد أوضحت ، ما وسعه جهدى ، قوانين الديمقراطية الأمريكية ، وعاداتها . وكان ينبغي لى أن أقف عند هذا الحد لولا خشيتى أن يشعر القارئ أنى لم أحقق له ما كان ينتظره من هذا الكتاب . ليست الديمقراطية المطلقة كل ما فى أمريكا ؛ فمن الميسور أن ننظر إلى سكان الدنيا الجديدة من أكثر من وجهة نظر واحدة . وكثيراً ما ساقى الموضوع ، وأنا أضع هذا الكتاب ، إلى التحدث عن الهنود والزنج ، إلا أن الوقت لم يتسع لى مطلقاً لأن أقف وأشرح مركز هذين الجنسين بين الشعب الديمقراطى الذى عنيت بوصف أحواله . لقد بينت القوانين التى أدت إلى تكوين الاتحاد الأمريكى الإنجليزى ، ولكنى لم أتمكن إلا من إلقاء نظرة عجل قاصرة على الأخطار التى تهدد هذا الاتحاد ، كما لم أستطع أن أسهب فى الكلام عن الفرص التى تتيح له البقاء ، من غير نظر إلى قوانينه وعاداته الأخلاقية . فعندما تحدثت عن الجمهوريات المتحدة ، لم أجازف بالإدلاء بأى رأى فى دوام أشكال الحكم الجمهورى فى الدنيا الجديدة ، وعندما أكثرت من الإيماء إلى النشاط التجارى القائم فى الاتحاد الأمريكى لم أعالج مع ذلك مستقبل الأمريكين فى التجارة .

وهذه كلها أمور تهم موضوعى الأساسى من قريب ، وإن لم تكن داخلية فيه فهى أمريكية وإن لم تكن ديمقراطية ، ووصف الديمقراطية هدفى الأول . فكان على إذن أن أؤجل دراسة هذه الموضوعات ، فأجلتها فعلاً . وهأنذا أعود وأتناولها من جديد وأختتم بها هذا الكتاب .

تمتد الأقاليم التى يشملها الاتحاد الأمريكى الآن ، أو التى يطالب بها ، من شواطئ المحيط الأطلسى إلى شواطئ المحيط الهادى ؛ وحدوده من الشرق والغرب حدود القارة نفسها . أما من الجنوب فتمتد حتى تقارب المدار^(١) ، وأما شمالاً فبلغ الأقاليم المتجمدة الشمالية .

هذا وليس الناس المنتشرون فى هذه الأقاليم المترامية الأطراف فروعاً عدة تنتمى كلها إلى أصل واحد ، كما هى الحال فى أوروبا . فحسبنا نظرة واحدة ، فندرك لأول وهلة أن ثمة

(١) ذلك لأن فلوريدا لم تنضم إلى الاتحاد الأمريكى إلا فى سنة ١٨١٩ ، بمهارة جاكسون ولم تصح ولاية أمريكية إلا فى سنة ١٨٤٥ . أما تكساس فقد كانت تابعة للمكسيك ثم انفصلت عنها وظلت دولة مستقلة من سنة ١٨٣٦ إلى سنة ١٨٤٥ ثم ضمت إلى الولايات المتحدة .

أجناساً ثلاثة في هذه البلاد، ميزتها الطبيعة بعضها عن بعض، وأكاد أقول إنها أجناس متعادية، كل جنس منها خصم للجنس الآخر. فقد أقام القانون وأقامت التربية والتعليم بينها حواجز مانعة، فضلاً عن تباينها في الأصل وفي السمات الظاهرة، ولكن المصادفة وحدها هي التي جمعت هذه الأجناس كلها في صعيد واحد من غير أن تدبجها بعضها في بعض، على الرغم من اختلاطها. فكل جنس منها يجرى نحو ما قدر له من مصير، من غير نظر إلى ما قدر على الآخرين.

فأول جنس من هذه الأجناس البشرية المختلفة كل الاختلاف يسترعى الأنظار، ويعد أسمى الأجناس كلها قاطبة من حيث الذكاء والقوة والاستمتاع بالحياة، هو الجنس الأبيض أو الأوربي، وإن شئت قلت جنس الإنسان بأسمى ما يدل عليه هذا الاسم من المعاني، ثم يليه الزوج فالهنود. وليس بين هذين الجنسيتين شيء مشترك، لا من حيث المولد، ولا من حيث الملامح والقسمات واللغة والعادات. فهما لا يشبهان في شيء غير حفظهما المنكود، فكلاهما يشغل مرتبة وضيفة في البلاد التي يسكنها، وكلاهما يعالى الأمرين من الاستبداد والظلم. فإن لم تكن المظالم التي يشكوان منها واحدة، فكلاهما يرجع إلى مصادر واحدة من وضع البشر.

لو أنا اعتبرنا بما يحدث في هذه الدنيا، لوجب علينا في أغلب الأحوال أن نقول بأن الأوربي يعد بالنسبة إلى بقية الجنس البشري مثلما يعد الإنسان بالنسبة إلى الحيوانات الأذى منه. فهو يسخره لقضاء أغراضه، فإن لم يستطع إخضاعه قضى عليه بالهلاك. لقد حرم الظلم سلالات الزوج كل ما يمتاز به بنو الإنسان تقريباً، حتى لم يعد لدى الزنجي في الولايات المتحدة ذكرى عن بلاده الأصلية، ولم تعد اللغة التي كان يتخاطب بها أجداده تسمع حوله، فقد هجر دين أجداده، ونسى عاداتهم الأخلاقية، وانفصل عن إفريقيا، ولم ينل مع ذلك أى حق للمطالبة بما ينعم به الأوربي، بل بقى في وسط الطريق بين هذا وذاك. معزولاً بين جنسين من البشر: جنس باعه، وآخر تنكر له. فلم يجد بقعة في العالم كله يسميها وطناً غير صورة ناقصة لذلك المأوى الذي أتاحه له سيده.

وليس للزنجي أسرة، ولا تعدو المرأة عنده أن تكون رفيقة مؤقتة للذاته. أما أطفاله فيعدون منذ يولدون على قدم المساواة مع أبيهم. وهل لي أن أقول إنها لنعمة من نعم الله، أو علامة من علام غضبه على خلقه، أن يبدو الإنسان في أحوال معينة جامد الشعور لا يحس بما هو غارق فيه من شقاء بالغ، بل إنه قد يكتسب محبة منحرفة لدواعي شقائه وتعاسته؟ فبعد أن ارتطم الزنجي في هذه الوحدة من الشرور والحباث، أصبح لا يكاد يشعر بما في مركزه من ضعة وهوان، فقد ألقى به العنف في الرق، وأكسبته عادات العبودية أفكار الرقيق ورغباته. فتراه يعجب بظالمه أكثر مما يكرههم، ويمجد مسراته ومفاخره في أن يحاكي أولئك الذين استبدوا به، محاكاة ذليلة. لقد هبط تفكيره إلى الدركة التي انحطت إليها نفسه.

يدخل الزنجي ربة الرق من يوم تفتح عيناه على هذه الدنيا ، بل إنه ليشتري أحياناً وهو جنين في بطن أمه ، فهو عبد حتى قبل أن يولد . ويبدأ ، قبل أن يرى الضوء ، محروماً من حاجياته ، ومتمه ، لاجدوى منه حتى لنفسه ، إذ هو يتعلم منذ يوجد في هذا العالم أنه مملوك لشخص آخر ، يمه أن يعنى به ، ويحافظ على حياته . فالزنجي يدرك أن العناية بمصاحه ليست من شأنه ، وإنما من شأن سواه . وصارت القدرة على التفكير في نظره هبة من الله لا طائل تحتها . فكأنى به يستمتع في رضى وهدوء بالميزات التي تحوّلها له ضحته وهوانه .

وإذا ما أعتق وصار حراً ، فإنه كثيراً ما يعد الاستقلال قيئاً أثقل عليه من الرق . فبعد أن ظل حياته كلها ، يتعلم الخضوع لكل شيء ما عدا العقل ، صار عندما يكون العقل هاديه الوحيد ، يعجز كل العجز عن إدراك مطالبه . وعندما تتكاثر عليه الرغبات المستجدة العديدة ، وتلح عليه ، لم يجد لديه المعرفة ولا الهمة اللازمتين لمقاومتها . فصبح تلك الاحياجات في نظره «سادة» يجب أن يكافحها . ولكن أى له أن يكافح وهو لم يعرف في حياته غير الخضوع والإذعان ؟ وهكذا نزل الزنجي في الجملة إلى هوة عميقة من البؤس والدلة . فإن كان الرق قد جملة بيماً جامد الحس ، فإن الحرية تقضى عليه وتهلكه .

هذا ، ولم يكن أثر الظلم في الجنس الهندي بأقل منه في الزنوج . أما نتائجه فمختلفة ، فقبل أن يصل الرجل الأبيض إلى الدنيا الجديدة ، كان سكان أمريكا الشمالية الأصليون يعيشون قانعين راضين في غاباتهم ، صابرين على صروف الزمان وتقلباته في حياة المتوحشين ، يمارسون ما في تلك الحياة من فضائل ورتائل . وبعد أن شتت الأوربيون شمل القبائل الهندية وطردها إلى الجاهل والفيافي ، قضوا عليهم بأن يعيشوا عيشة متقللة لاستقرار فيها ، وهى عيشة كلها آلام ومتاعب تجل عن الوصف والتعبير .

فالشعوب المتوحشة لا يحكمها غير الرأى العام والعرف الغالب عليها . فبعد أن فقد هود أمريكا الشمالية عاطفة حب بلادهم ، وبعد أن تشتت أسرهم ، وضعفت تقاليدهم ، وانفصمت عرى ذكرياتهم ، وبعد أن تغيرت كل عاداتهم وزادت حاجاتهم على كل حد - بعد ذلك زادهم استبداد الأوربيين بهم فوضى ، وأضعف حضارتهم عما كانت عليه من قبل ، فظلت حالة هذه القبائل المادية والأخلاقية تزداد سوءاً باستمرار ، حتى صاروا أكثر وحشية كلما ازداد بؤسهم وشقاؤهم . ومع ذلك لم يستطع الأوربيون أن يغيروا شيئاً من أخلاق الهنود . ومع أن الأوربيين هؤلاء كانوا يستطيعون إهلاكهم وإبادتهم . فإنهم لم يستطيعوا أبداً أن يخضعوهم ويمدوهم .

كان من حظ الزنجي المقدور عليه أن يكون عند طرف العبودية ، على حين كان حظ الهندي يقع عند طرف «أية الأقصى» . ولم يكن تأثير الرق في الأول بأسوأ من تأثير الاستقلال في الثاني . لقا أضعاع الزنجي كل حق له في ملكيته الشخصية ، ولا يستطيع

حتى أن يتصرف في وجوده ذاته من غير أن يرتكب نوعاً من السرقة . ولكن المتوحش يعد سيداً تعساً منذ استطاع أن يعمل ، فهو لا يكاد يعرف سلطة الوالدين ، ولم يكن إرادته قط لإرادة أى إنسان من بنى جلده ، ولم يتعلم أبداً الفرق بين الطاعة الاختيارية وبين ذلة الخضوع . فهو لم يعرف حتى اسم القانون (فلفظة القانون ذاتها غير معروفة عنده) ومعنى الحرية في نظره لا يعدو التخلص من كل قيد من قيود المجتمع . ولما كان يغتبط بهذا الاستقلال الوحشى ، ويؤثر أن يهلك على أن يضحى بأدنى جزء منه فليس للحضارة أى سلطان على مثل هذا الإنسان .

ويذلل الزنجي الكثير من الجهود غير المجدية لكي يزوج نفسه خلسة بين الناس الذين يأبون عليه أن يكون بينهم ، فتراه يأخذ بأساليب ظالميه المسيطرين عليه ، وبارائهم ، ويأمل أن يصبح بمحاكاتهم جزءاً من مجتمعهم . وإذا كان يقال له منذ نعومة أظفاره أنه من جنس دون الجنس الأبيض ، صار يتقبل هذه القضية ، ويحجل كل الحجل من ضيعة نفسه ، فهو في كل سمة من سماته يرى أثر الرق ، ولو استطاع لرضى أن يتخلص من كل شيء جعله ما هو عليه .

أما الهندي ، فعلى النقيض من ذلك غلب عليه الوهم حتى صار يزهى بنبل أصله المزعوم ، ويعيش ويموت وهو غارق في أحلامه بنبائه وعظمته ، فكان أبعد ما يكون عن أن يرغب في تكييف عاداته بعاداتنا . فهو يحب حياته الممجية بوصفها السمة التي يتميز بها أبناء جنسه ، ويأبى كل دعوة إلى الأخذ بأساليب الحضارة ، لاعن كراهية لها ، بل خوفاً من أن يشبه الأوربيين . فليس لديه ما يقدمه حيال ما بلغناه في الفنون من كمال ، غير موارد البرارى ؛ وليس له إزاء حيلنا الحربية غير شجاعته الجسمانية غير المدربة . فمادام كذلك ، ومادامت خططنا المدروسة حق الدرس لا يقابلها من ناحية الهندي سوى غرائز الحياة الوحشية التلقائية ، فلا غرو أن فشل الهندي في هذا الصراع غير المتكافئ .

كان الزنجي الراغب في الاختلاط بالأوربيين رغبة صادقة ، لا يستطيع أن ينجح في ذلك إلى حد ما ، يحتقر كل الاحتقار أن يحاول القيام ببذل أى جهد في هذا السبيل . فذل الأول قضى عليه بالعبودية ، وكبرياء الثاني أوردته موارد الهلاك .

أذكر أنى في سفرة لى وسط الغابات التي مازالت تكسو ولاية ألاباما ، وصلنا ذات يوم إلى بيت خشبي يسكنه أحد الرواد . وإذا لم أكن أقصد أن أدخل بيت الأمريكي ، انتبذت مكاناً عند عين ماء ، ورقدت هنية لعل أريح فيها نفسى . ولم تكن العين بعيدة عن مدخل الغابة ؛ فبين أنا في ذلك المكان (وهو لا يبعد كثيراً عن إقليم الهنود الكريك) إذا بامرأة هندية تطلع علينا ، وخلفها أخرى زنجية ممسكة بيدها فتاة بيضاء لاتزيد سنها على الخامسة أو السادسة حسبها ابنة ذاك الرائد الأمريكي ، وكانت الملابس التي ترتديها الهندية تبرز الترف الوحشى . فقد تدلى حلق من المعدن من منخرمها وأذنيها ، وكان شعرها

المحلى بالحرز مرسلأ على كضيها في غير نظام . ولحظت أنها لم تتزوج بعد لأنها لاتزال ترتدى عقداً من الحار الذي تخلمه العذراء عن طوقها وتطرحه على سرير العرس . أما الزنجية فقد كانت ترتدى ملابس أوربية قدرة مهلهلة . فجاء الثلاثة وجلسن عند حافة العين ، وأخذت الهندية الطفلة الأوربية بين يديها ، وجعلت تغمرها بالمطف والقبلات كما تغمر الأم أطفالها ، على حين كانت الزنجية تعمل على استلفات أنظار الصغيرة بحيل شتى . وكانت الطفلة تبتدى في كل حركة من حركاتها ما يدل على شعورها بالنفوق والسيادة على نحو غريب يتناقض مع ضعف الطفولة ، فكأنها تقبل رعاية رفيقتها بشيء من التنازل . وكانت الزنجية تجلس القرفصاء على الأرض أمام سيدتها ترقب أقل رغبة بتديها فطليها . وظاهر أن مشاعرها كانت موزعة بين محبة أم للطفلة ، وبين خوف ذليل منها . على حين كانت الهندية تبدو على ما بها من رقة وعطف ، في مظهر ينبيء عن حرية وعن كبرياء تكاد تكون متوحشة . فجعلت أقرب من تلك الجماعة وأتأمل هذا المشهد في صمت ، ولكن يظهر أن فضولى لم يرق للمرأة الهندية ، فقد نهضت فجأة ودفعت الطفلة عنها بشيء من العنف ، ثم حدجسى بنظرة غصبي ، وعادت إلى الغابة واختفت في أعماقها .

وكثيراً ما صادفت في المكان الواحد أفراداً مجتمعين ، يمثلون الأجناس الثلاثة التي يتكون منها سكان أمريكا الشمالية ، وسرعان ما أدركت من سمات كثيرة متنوعة تغلب الجنس الأبيض وسيادته . ولكن الصورة التي رسمتها حوت شيئاً مؤثراً كل التأثير . فثم آصرة مودة ربطت المظلومين بالظالمين ، إلا أن الجهود التي بذلتها الطبيعة في التقريب بين هذه الأجناس ، قد أبرزت الفرق الشاسع الذي خلقته فيها القوانين وضروب التحيز والتعصب .

القبائل الهندية التي تقطن الولايات المتحدة حالتها الحاضرة وما يحتمل أن تكون عليه في المستقبل

اخفاء القبائل الأصلية التدريجي - كيف حدث هذا الاختفاء - ما يترتب على هجرات الهنود الاضطرابية من ضروب البؤس - ليس لدى المتوحشين في أمريكا الشمالية سوى وسيلتين للتخلص من الهلاك : إما الحرب وإما التحضر . لم تعد الحرب في مقدورهم - الأسباب التي جعلتهم يأبون الأخذ بأساليب الحضارة عندما كان ذلك في وسعهم ، والأساليب التي جعلتهم عاجزين عن الأخذ بها عندما يريدون أن يتحضروا فعلا - حالة قبيلتي الكريك والتشروكي - سياسة الولايات المتحدة المختلفة تجاه هؤلاء الهنود - سياسة الحكومة الفدرالية إزاءهم .

لم يعد الآن لأية قبيلة من قبائل الهنود التي كانت تقطن إقليم نيويورك أمثال قبائل التراجنست ، والموهيكان والبكوت أى وجود إلا في ذاكرة الناس . وقد زالت الآن قبيلة

الليباس التي استقبلت (وليم بن)^(١) على ضفاف نهر الديلاوير منذ مائة وخمسين سنة مضت . هذا وقد التقت بفلول قبائل « اليوروكوا » وهم يسألون الناس إحساناً . لقد كانت هذه الشعوب التي ذكرتها تعيش في أمريكا منتشرة في البلاد حتى الشواطئ ، أما اليوم فعلى السائح أن يتوغل في القارة أكثر من مائة فرسخ قبل أن يصادف هندياً واحداً . وهذه القبائل المتوحشة لم تراجع إلى داخل القارة فحسب ، بل هلك أكثرها . وكلما تراجعت أمة منها أو هلكت جاء شعب آخر كثير العدد فاحتل مكانها وظل يتزايد بسرعة ، ولم يسبق أن قرأنا في التاريخ المسطور شيئاً عن شعب يتزايد بهذه الكثرة أو يهلك بهذه السرعة . أما كيف حدث هذا الهلاك الذريع فأمر لا يعز علينا وصفه .

فعندما كان الهنود يقطنون وحدهم دون شريك ، البرارى التي أصبحوا يطردون منها الآن ، كانت احتياجاتهم قليلة ، وكانت أسلحتهم من صنع أيديهم ، وشرابهم الوحيد من مياه الأنهار ، وملابسهم من جلود الحيوان الذى يتخذون منه طعامهم .

ثم جاء الأوروبيون وأدخلوا بين همجى أمريكا الشمالية الأسلحة النارية ، والخبور والحديد ، وعلموهم أن يتخذوا ملابس لهم من الأقمشة المنسوجة بدلاً من تلك الملابس الخشنة التي ترضى سذاجتهم غير المدربة . وبعد أن اكتسب الهنود أدواقاً جديدة من غير أن يتعلموا الفنون التي تمكنهم من إرضاء هذه الأدواق ، اضطروا إلى أن يلجأوا إلى ما يصنعه الرجال البيض . وإذ ليس عند الهندي ما يقايض به سوى الفراء الثمينة التي مازالت كثيرة في غاباتهم فكان لابد له من الصيد والطراد ، لاليسد رفقه فحسب ، بل ليرضى رغائب الأوربيين وأهواءهم العابثة . فلم يعد الهندي يصيد الحيوان في الغابات من أجل الحصول على قوته ، ولكن للحصول على الأشياء الوحيدة التي يستطيع أن يقايض بها ، وبذلك صارت موارد الهنود تتضاءل كلما ازدادت احتياجاتهم وتنوعت مطالبهم .

فمن اليوم الذى تستقر فيه جماعة من البيض في مكان ما على مقربة من الإقليم الذى يحتله الهنود الحمر يستولى الذعر على حيوانات الصيد ، على غير عاداتها عندما كان الآلاف من المتوحشين الرحل يجوسون خلال الغابات ، وذلك لأنهم لا مساكن لهم ثابتة . ولكن ما إن أخذت أصوات المصانع الأوربية تدوى باستمرار على مقربة منها ، حتى جعلت هذه الحيوانات تجفل وتهرب متجهة نحو الغرب ، فهي تعرف بغريزتها أنها تستطيع أن تجد فيه قفاراً ومجاهل مازالت لا حد لها ولا نهاية . قال السيدان كاس وكلارك في تقرير لهما رفعاه إلى الكونجرس في الرابع من فبراير سنة ١٨٢٩ : « أن قطعان الجاموس تراجع باستمرار ، فقد بلغت منذ سنوات قلائل سفوح جبال الألبانى ، وبعد بضع سنين أخرى قد تصبح

(١) وليم بن (١٦٤٤ - ١٧١٤) إنجليزى ينتمى إلى طائفة دينية يعرف أعضاؤها بالكويكوز ، منحه ملك الإنجليز قطعة أرض كبيرة في أمريكا سداداً لدين كان عليه لأبيه فحملها (بن) ملجأً لأبناء طائفته المضطهدين والفقارين من إنجلترا وأسماءها بنسلفانيا .

نادرة حتى في السهول المترامية الأطراف التي تمتد على طول سفوح جبال روكني . لقد تأكد لي بأن هذا التأثير لاقترب الرجل الأبيض أصبح يُستشعر به على مسافة ألفي فرسخ من حدودها . وهكذا صار نفوذ الأوربيين البيض يسيطر على قبائل لا يعرفون عنها حتى اسمها ، وصارت تعاني الكثير من مساوئ الاغصاب وشروره قبل أن تعلم شيئاً عنم كانوا السبب فيما حل بها من شقاء .

وسرعان ما تقوم جماعات من المغامرين الجريئين وتتوغل في البلاد التي غادرها الهنود . وعندما تصل هذه الجماعات إلى ما يعد حوالي الخمسة عشر أو العشرين فرسخاً من أقصى حدود البيض ، تشرع في إنشاء مساكن للناس المتحضرين في قلب البراري نفسها ، من غير أن تجد في ذلك أية مشقة ، فحدود الأقاليم التي تقطنها شعوب تعيش على الصيد والطرْد ، غير معينة ، وأراضيها ملك مشاع للقبيلة كلها ، وليست ملكاً لفرد أو أفراد معينين . ومن ثم لم يكن لأحد في أي جزء منها مصالح شخصية يدافع عنها .

ولا تلبث بعض الأسر الأوربية التي تحتل مواقع متباعدة كل البعد بعضها عن بعض ، أن تطرد الحيوانات المتوحشة التي تهيم في الأراضي التي بين مساكنهم ، وسرعان ما يدرك الهنود الذين كانوا يعيشون من قبل عيشة رضية بشكل ما ، أن وسائل العيش قد أصبحت متعذرة وشاقة عليهم ، وأشق منها أن يجدوا سبيلاً للحصول على الأشياء التي يقايمون بها ما يحتاجون إليه من سلع الأوربيين . فقد كان لطرْد حيوانات الصيد من الأثر فيهم ما يشبه تأثير تحوّل الحقول إلى أراضٍ جدياء في نفوس المزارعين . وإذ حرم الهنود وسائل العيش فقد أصبحوا كالذئاب الجماعة يجوسون خلال الغابات اتحماً للفريسة . إن محبتهم الفريزية لأوطانهم التي درجوا فيها جعلتهم يتعلقون بأراضيها كل التعلق ولكنهم صاروا لا يجدون فيها الآن غير البؤس والهلاك ، وانتهى بهم الأمر إلى الرضوخ للواقع ، والرحيل عنها مقتضين أثر حيوانات مثل التيتل والجاموس والقدس يستهدون بها في اختيار وطن جديد لهم . ففي الحق إذن لم يكن الأوربيون هم الذين طاردوا أهالي أمريكا الأصليين ، وإنما الذي طاردهم هو الجذب . وذلك فرق عجيب فات أمره أولئك المسفطين القدامى ، واهتدت إليه الكشوف الحديثة .

ليس من السهل علينا أن نتصور الشدائد والآلام . التي ترتبت على هذه الهجرات الاضطرارية التي قام بها شعب منبوك القوى فقد كثيراً من أعضائه . وكانت الأراضي التي اتجه إليها هؤلاء النازحون مأهولة ، فقد سبقهم إليها قبائل سكنتها ولم يكن يسعها عندئذ إلا أن تستقبل الوافدين عليها بالحذر وإضمار العداوة . لقد كان وراءهم الجوع ، وأمامهم الحرب ، وحوهم الشقاء يحيط بهم من كل جانب . فلكى يتخلصوا من هذه الأعداء الكثيرة قرروا أن ينفصلوا بعضهم عن بعض وأن يحاول كل منهم أن يسمى وحده وراء رزقه خفية من الآخرين ، وذلك بأن ينزل عنهم ويعيش في الصحارى الواسعة أشبه بطريد من طرداء المجمع المتحضر . وعندئذ تحل الأصرة الاجتماعية بعد أن ظل الشقاء ينخر فيها

ويضعفها زماً طويلاً . لم يعد للهنود وطن ، وبعد قليل لن يكونوا شعباً . فقد زالت أسرهم أو كادت ، واختفى كل شيء حتى اسمهم العام ، وانقرضت لغتهم ، وانطمس كل أثر من آثار أصلهم ، ولم يعد لأمتهم أى وجود ، اللهم إلا في ذاكرة رجال العاديات الأمريكيين وحفنة من علماء أوروبا .

إني ليؤسفني أن يتصور القارىء أنى قد أسرفت هنا في ألوان الصورة التي رسمتها . فقد رأيت بعيني رأسى كثيراً من أنواع البؤس التي وصفتها توا ، وكنت شاهد عيان لآلام ومتاعب يشق على تصويرها فعلاً .

ففي أواخر سنة ١٨٣١ ، وأنا على الضفة اليسرى من نهر الميسيسي ، وفي موضع أسماه الأوربيون «مفيس»^(١) ، وصلت فرقة كبيرة من قبيلة الشوكو (أو التشاكتا كما يسميهم الفرنسيون في لويزيانا) . فقد غادر هؤلاء المتوحشون بلادهم ، وجاءوا يحاولون أن يلفوا ضفة الميسيسي اليمنى حيث رجوا أن يجدوا لهم فيها موئلاً ، كانت الحكومة قد وعدتهم به ، وكنا وقتئذ في قلب الشتاء ، والبرد قارس على غير العادة ، فقد تجمد الثلج على الأرض ، وكانت كتل الأجساد الجسيمة تنساب في نهر ، وكان الهنود قد اصطحبوا معهم أسرهم ، ومن خلفهم المرضى والجرحى والأطفال الحديثو الولادة ، والشيوخ الفانون الذين أوشكوا على مفارقة هذه الدنيا . ولم يكن معهم خيام ولا عربات ، وليس لديهم غير أسلحتهم ، وغير قليل من المؤن . فشاهدتهم يركبون السفن ليعبروا بها النهر العظيم . وكان مشهداً أى مشهد ، لن ينمحي أثره من ذاكرتي . فلم تكن تسمع في هذا الحشد المجتمع صرخات ولا أنات ، بل لزموا الصمت جميعاً . فلم تكن مصائبهم هذه بالشيء الجديد ، وهم يعلمون حق العلم أن لا علاج لها . فركبوا جميعاً السفينة التي ستحملهم إلى العدو الثانية من النهر وبقيت كلابهم على البر . فلما رأت أصحابها قد غادروا الشاطئ حقاً جعلت تعوى عواء منكرأ ، ثم ألقت بنفسها في مياه نهر الميسيسي ، وكانت باردة برودة الثلج ، وظلت تعوم خلف السفينة التي تحمل أسياها .

والآن ، كثيراً ما يحدث أن يطرد الهنود عن أراضيهم بطريقة منظمة كما لو كانت طريقة قانونية . فعندما يبدأ الأوربيون في الاقتراب من أطراف الفيافي التي تقطنها قبيلة من القبائل المتوحشة ، تبث حكومة الولايات المتحدة عادة برسلاً ليجمعوا الهنود في سهل فسيح ، وبعد أن يتناولوا معهم الطعام والشراب يخاطبونهم قائلين : «لماذا عليكم أن تعملوا في أرض أجدادكم ؟ إنه لن يمضي عليكم زمن طويل حتى تبنشوا عظامهم كى تستطيعوا أن تعيشوا . فبأى شيء تمتاز الأراضي التي تسكنونها على غيرها ؟ ألا توجد غابات ومناقع غير تلك التي تعيشون فيها ؟ ألا يمكن أن تعيشوا إلا تحت شمسكم ؟ إن وراء تلك الجبال التي ترونها عند الأفق ، وتلك البحيرة التي عند طرف حد بلادكم الغربى ، بلاداً مترامية الأطراف ، حيوانات الصيد فيها كثيرة . فبيعونا أراضيكم هذه ، وامضوا أنتم وعيشوا سعداء في تلك الفيافي المنعزلة ، وبعد هذا الحديث ينشرون أمام

(١) مدينة كبيرة يبلغ عدد سكانها أكثر من ٦٥٢ ألف نسمة (١٩٩٠) .

أعينهم الأسلحة ، والملابس الصوفية ، وزقاق الخمر ، وعقوداً من الخرز والزجاج وأساور زائفة ، وأقراطاً ومرايا . فإن هم ترددوا بعد مشاهدتهم هذه الثروات البراقة أوحوا إليهم أنهم لا يستطيعون أن يرفضوا ما عرض عليهم ، وأن الحكومة نفسها لا تستطيع أن تظل تعمل طويلاً على حمايتهم . فماذا عساهم أن يعملوا؟ إنهم نصف مقتعين ونصف مكروهين ، فليس أمامهم إلا أن يمضوا لسكنى الفيافي ، حيث لا يدعهم البيض الملحفون يلبثون ما يزيد على عشر سنوات في سلام ، وهكذا نرى الأمريكيين يحصلون بثمن بخس على أقاليم برمتها يعجز أغنى ملوك أوروبا عن شرائها .

إنها لاشك شرور كبيرة تلك التي وصفها ترواً . ويحسن لي أن أضيف أنها شرور لا علاج لها في نظري ، وأن هنود أمريكا الشمالية - قضى عليهم بالهلاك ، ولا يسعني إلا أن أقول إنه حينما يحل الأوربيون على شواطئ المحيط الهادئ وترسخ أقدامهم فيها يكون الهنود الحمر قد قضى عليهم بالزوال . فليس أمامهم في أمريكا الشمالية سوى طريقتين اثنتين : الحرب أو الحضارة . وبعبارة أخرى : إن عليهم أن يقضوا على الأوربيين أو أن يصبحوا مساوين لهم .

ولو أن الهنود اتحدوا وجمعوا قواهم عند بداية استعمار الأوربيين بلادهم لكان من الجائز أن ينقذوا نفوسهم من أيدي تلك الحفنة الصغيرة من الأجانب الذين نزلوا بشواطئهم . فارتهم . وفعلاً حاولوا ذلك أكثر من مرة ، وكادت جهودهم أن تكفل بالنجاح ، أما الآن فمدى التفاوت بين مواردهم وبين موارد البيض شاسع شوعاً لا مجال معه لأن يحظر ببال أحد منهم أن يضطلع بمثل هذا المشروع الآن . ومع ذلك فقد ينبغ بين الهنود الحمر رجال ألمعون ، أدركوا سلفاً المصير المحتوم الذي يتربص بأقوامهم ، وقد بذلوا جهودهم في جمع القبائل كلها على مناصب الأوربيين العدا ، ولكنها كانت جهوداً ضاعت سدى . فقد ضعفت القبائل المجاورة لمنازل البيض كل الضعف ، حتى لم يعد في طاقتها ، أن تقاومهم مقاومة مجدية . أما القبائل الأخرى فقد استسلمت إلى ذلك النوع من الاستتار الطفلي بما يأتي به الغد ، وهو الاستتار الذي تتسم به أخلاق الشعوب البدائية ، وجعلت تنتظر ، حتى يدهمهم الخطر فتب لمواجهته . كانت بعض القبائل إذن لا تستطيع أن تعمل ، وكانت الأخرى لا تريد أن تعمل .

ومن السهل أن ندرك أن الهنود لن يعملوا على أن يتحضروا ، فالوقت يكون قد فات عندما يحاولون القيام بمثل هذه التجربة .

فالْحِصْرَةُ ثَمْرَةٌ عَمَلِيَّةٌ اجْتِمَاعِيَّةٌ طَوِيلَةُ الْأَمْدِ تَجْرِي فِي إِقْلِيمٍ مَعِينٍ ، وَيَتَوَارَثُهَا النَّاسُ جِيلًا بَعْدَ جِيلٍ ، كُلُّ جِيلٍ يَفِيدُ مِنَ الَّذِي سَبَقَهُ . فَالْأُمُّ الَّتِي لَا تَحْضُرُ لِعَوَامِلِ الْحِصْرَةِ إِلَّا بِكُلِّ مَشَقَّةٍ هِيَ الْأُمُّ الَّتِي تَعِيشُ عَلَى الصَّيْدِ . وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ الشُّعُوبَ الرَّعَوِيَّةَ كَثِيرًا مَا تَغْيِرُ مَتَجَمَّعَاتِهَا ، وَمَوَاطِنَهَا ، وَلَكِنَّهَا تَتَّبِعُ فِي ذَلِكَ نِظَامًا مَعِينًا . هَذَا ، وَإِنَّمَا كَثِيرًا مَا تَعُودُ إِلَى مَرَاكِرِهَا الْقَدِيمَةِ ، عَلَى حِينِ أَنَّ مَسَاكِنَ الصَّيَادِينَ تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ مَثَابَةِ الْحَيَوَانَاتِ الَّتِي تَطَارِدُهَا .

وعملت محاولات عدة لنشر التعليم بين الهنود الحمر من غير أن يعمل شيء لوقف نزعاتهم إلى النقلة والترحال . وقام بهذه المحاولات اليسوعيون في كندا ، و« المتطهرون » في نيوإنجلند ، ولكن أى محاولة منها لم تكفل بالنجاح الدائم . لقد بدأت فكرة الحضارة في الكوخ ولكنها سرعان ما نكصت وتراجعت تموت في أعماق الغابات . فغلظة هؤلاء المشترعين الكبرى التي وقعوا فيها بشأن الهنود ، أنهم لم يراعوا أن النجاح في إدخال عوامل المدنية بين شعب ما يقتضى العمل على جعل هذا الشعب يستقر أولاً استقراراً نهائياً . وهو لا يتأق إلا بحمله على العمل في زراعة الأرض . فكان ينبغي تعويد الهنود العمل في الزراعة من أول الأمر ، إذ لم يكن يعوزهم هذا العمل الأولى الذى لا بد منه للحضارة فحسب ، بل كانوا يجدون مشقة كبيرة في تعلم الحرث والزرع . فالقوم الذين استسلموا لحياة الصيد القلقة الحافلة بالمخاطر ، يشعرون بنفور كبير من العمل الدائب والرتيب . المستمر ، الذى تستلزمه فلاحه الأرض . وإنا لنشاهد ما يؤيد ذلك حتى في مجتمعاتنا . ولكنه واضح كل الوضوح عند الأجناس التى تعد ميولهم إلى الصيد والطراد جزءاً من خلقهم القومى .

وزيادة على هذه الصعوبة العامة ، ثم صعوبة أخرى تصدق على الهنود بصفة خاصة ، فهم لا يعدون العمل شراً فحسب ، بل يرونه عاراً . فكثيراً ما هم تناضل ضد الحضارة فضلاً عن عيبها ، فضلاً عن أن كسلهم يحول دونها كذلك .

فلا يوجد هندي واحد ، مهما بلغ به البؤس ، لا يحتفظ في كوخه المصنوع من لحاء الشجر بفكرة عالية عن قيمته الذاتية ، فإنه يعد هموم الصناعة ومشكلاتها الكثيرة أموراً تحط من قدره . وهو يشبه الفلاح بالثور الذى يجبر محراثه ، ولا يرى في كل صنعة أو مهنة من صناعاتنا ومهننا سوى عمل خليق بالعبء . وليس معنى ذلك أن الهندي لا يعجب بقوة البيض وبِعظمتهم الفعلية . فإن كانت ثمرات جهود الأوربيين تستثير فيه الدهشة ، فإنه يحتقر وسائلهم التى يحصلون بها عليها . وبينما يعترف بتفوق الأوربيين ، فإنه مازال يؤمن مع ذلك بتفوقه هو . فالحرب والصيد هما المهنتان الوحيدتان الجديرتان بالرجال في نظره ، فالهندي في مجاهل الغابات المظلمة يستمسك بنفس الآراء والأفكار التى كان يستمسك بها « الشريف » في العصور الوسطى ، في قصره الحصين ، ولا ينقصه إلا أن يكون غازياً فاتحاً حتى يصبح التشابه بينهما كاملاً . فمهما بدا الأمر غريباً ، ففي غابات الدنيا الجديدة ، وليس بين الأوربيين الذين يقطنون عند سواحلها ، لا تزال توجد ضروب التعصب الأوربية القديمة .

لقد حاولت أكثر من مرة في هذا الكتاب أن أشرح ما للأحوال الاجتماعية من سلطان عظيم على القوانين ، وعلى أخلاق الناس ، وأود الآن أن أضيف هنا بضع كلمات إلى هذا الموضوع .

فعندما أدرك وجوه الشبه التى بين مؤسسات أسلافنا الجرمان السياسية ، وبين قبائل أمريكا الشمالية الرحل ، أى بين العادات التى وصفها تاكيتوس ، وتلك التى شاهدها عياناً

في بعض الأحيان، لا يسعني إلا أن أقول إن نفس السبب أدى إلى نفس النتائج في كل من نصفى الكرة الأرضية، وإن في وسط ذلك التنوع الظاهر في شئون البشر، توجد حقائق أولية معينة تيسر الوقوف عليها، نشأت عنها مائر شئون الناس، فلست أرى فيما نسميه عادة بالمؤسسات الجرمانية، غير عادات همجية، وسوى آراء المتوحشين، فيما نسميه مبادئ إقطاعية.

فهما تعارضت ردائل الهنود القاطنين شمال أمريكا، وضروب تعصيم تعارضاً شديداً مع اشتغالهم بالمهن الزراعية والأخذ بوسائل الحضارة، فلا مراء من أن الضرورة قد تدفعهم إليها في بعض الأحيان. فقد وجدت قبائل جنوبية كبيرة، ومنها قبيلتا التشروكي والكريك، رأت نفسها محوطة بالأوروبيين الذين نزلوا على شواطئ المحيط الأطلسي ثم وصلوا إلى حدودهم، إما عن طريق نهر الأوهايو، وإما عن طريق نهر الميسيسي. فهذه القبائل لم تطرد إذن، ولم تشرد من مكان إلى مكان، كما كان شأن إخوانهم الضارين في الشمال، ولكن الأوروبيين ظلوا يضيّقون عليهم الحصار شيئاً فشيئاً حتى حصروهم في مكان ضيق، وحاشوهم كما يحاش الصيد، قبل أن يهجم عليه القناص. وهكذا انحصر هؤلاء الهنود بين الموت والحضارة، فوجدوا أنفسهم مضطرين إلى أن يعيشوا من عرق جيئهم ويعملوا كما يعمل البيض، مما يعد في نظرهم سبة وعاراً. ومع ذلك فقد اتجهوا إلى الزراعة. فمن غير أن ينزلوا عن عاداتهم ويتخلوا عن آدابهم القديمة تماماً، لم يضحوا منها في الواقع إلا بالقدر الذي لا بد لهم من أن يضحوا به كي يعيشوا.

هذا، وقد سار «التشروكي» أبعد من ذلك مدى، فقد وضعوا لغة مكتوبة وأقاموا لهم شكلاً مستقراً من أشكال الحكم. وإذ كل شيء في العالم الجديد يجري بسرعة عظيمة فقد أنشأوا لهم صحيفة يومية، قبل أن يحصل كل منهم على ملابس يستر بها جسمه.

وكان لنشوء الجنس المهجين اليد الطولى في تقدم هؤلاء الهنود الحثيث في الأخذ بعادات الأوروبيين. فقد ورث هؤلاء المهجناء الذكاء عن آباؤهم من غير أن يفقدوا عادات أمهاتهم الوحشية تماماً؛ ومن ثم صاروا يعدون حلقة اتصال طبيعية بين الحضارة والهمجية. فحينما تكاثرت عدد هذا الجنس تعدل حالة الهنود الاجتماعية شيئاً فشيئاً، ويحدث تغيير في أحوال الشعب وعاداتهم الأخلاقية.

ويدل نجاح «التشروكي» هذا على أن الهنود قابلون للأخذ بأساليب الحضارة، ولكنه لا يدل على أنهم سينجحون فيما حاولوا. وتنشأ الصعوبة التي يلاقونها في اصطناع هذه الأساليب عن سبب عام يكاد يستحيل عليهم أن يتحاشوه. فلو أنا رجعنا إلى التاريخ ندرسه بمزيد من التعمق، لانتضح لنا أن الأمم الهمجية في جملتها، لم ترتق إلى الحضارة إلا تدريجياً، وبما تبذله هي نفسها من جهود. وكلما استمد أهل تلك الأمم المعرفة من شعب أجنبي، وقفوا حياله موقف القاهر المنصور، لا موقف الشعب المقهور. فإن كانت الأمة

المغلوبة مستترة وكان الغزاة نصف متوحشين ، كما كانت الحال عند غزو برابرة الشمال للإمبراطورية الرومانية ، وغزو المغول للصين ، صارت القوة التي يضيفها النصر على المتوحشين كافية للاحتفاظ بأهميتهم بين المتحضرين ، وتسمح لهم (المتوحشين) أن يقفوا وإياهم في مستوى واحد حتى ليعدوا مناظرين لهم وأنداداً ؛ فلفريق القوة والسلطان ، وللآخر العقل والفتنة . فالأول يعجب بما لدى المتهورين من ذكاء ، ويحسد الثاني الغزاة على ما لديهم من قوة . وأخيراً يرضى الهمجيون أن يسمحوا للرجل المتحضر بدخول قصورهم ، ويفتح لهم بدوره مدارسه . ولكن عندما يملك الجانب الذي في صفه القوة المادية تفوقاً عقلياً إلى جانب تفوقه المادي يندر أن يتحضر المتهور . فهو إما ينكص أو يهلك . ومن ثم فلا بأس من أن نقول بوجه عام إن المتوحشين يمضون مسلحين سعياً وراء المعرفة ولكنهم لا يتقبلونها إذا ما جاءت هي تسعى إليهم .

لو نشطت القبائل الهندية التي تحتل قلب القارة الآن النشاط الكافي وحاولت أن تأخذ بأسباب الحضارة لجاز لها أن تنجح . فإذا كانت تفوق الأمم الهمجية التي تحط بها ، فإنها ستكتسب تدريجياً قوة وخبرة ، حتى إذا ما ظهر الأوروبيون عند حدودهم كانوا في حالة ، إن لم تمكنهم من أن يصونوا استقلالهم ، فهي تتمكنهم ، على الأقل ، من إثبات حقوقهم في الأراضي التي يشغلونها ، كما تيسر لهم أن يندمجوا في الفاتحين . ولكن من سوء حظ هؤلاء الهنود أن يجيء اتصالهم بشعب متحضر من أشد الشعوب جشعاً (وهذا ما يجب أن نعترف به) ، على حين لا يزالون هم نصف همج ، وأن يجدوا سادتهم بين معلمهم ، وأن يتقبلوا التعليم والظلم معاً في وقت واحد . ولما كان الهندي الذي يعيش في أمريكا الشمالية في حرية كاملة وسط الغابات ، فقيراً معدماً ، ومع فقره هذا لا يشعر بأنه دون أحد ، فإنه إن رغب مع ذلك في الاندماج في حياة البيض الاجتماعية ، لم يستطع أن يشغل سوى أدنى المراكز الاجتماعية ، لأنه إنما يدخل دوائر العلم والمال جاهلاً فقيراً . فبعد أن كان يحيا حياة كلها استشارة وتبجح ، حافلة بالأخطار والشروع ، مليئة في الوقت نفسه بانفعالات كلها صلف وكبرياء ، يجد نفسه مضطراً إلى الرضوخ لحالة متعبة خاملة ووضعية ذليلة . فكسب المرء عيشه بالعمل الكادح الدليل يعد في نظره النتيجة الوحيدة التي تستطيع الحضارة أن تفخر بها ، وحتى هذا العيش الدليل ليس ميسوراً له دائماً في كل حال .

ف عندما يحاكي الهنود جيرانهم الأوروبيين بأن يحرقوا الأرض كما يحرقونها ، يتعرضون مباشرة لمنافسة قوية . فالرجل الأبيض يحذق مهنة الزراعة كل الحذق ، على حين الهندي مبتدئ فيها ، لا عهد له بها . فبينما يجنى الرجل الأبيض غلات طيبة من أرضه في غير مشقة ، يجد الهندي آفاقاً من العقبات تقوم في سبيل الحصول على ثمرات أرضه .

ويعيش الأوربي بين ظهراني أقوام يعرف احتياجاتهم ومطالبهم ويشترك معهم . أما الهمجي فيعيش وحده معزولاً وسط شعب يناصبه العداة ، ولا يعرف من عاداته ، ولغته

وقوانينه إلا القليل . ومع ذلك فإنه لا يستطيع أن يعيش من غير معاونتهم ، ولا هو يستطيع أن يحصل على الراحة المادية إلا بأن يقايض بسلعه السلع التي ينتجها الأوريون . فمساعدة بني بلدته له لم تعد تكفى مطلقاً لسد احتياجاته . فإن أراد الهندي ، أن يبيع شيئاً من إنتاجه ، لم يجد المشتري أمامه دائماً ، على حين يجد الأورنى مباشرة السوق التي تروج فيها منتجاته ، ذلك إلى أن الهندي لا يستطيع أن ينتج ما يبيعه الأورنى بأثمان قليلة ، إلا بنفقات كثيرة باهظة . وهكذا لم يكد الهندي يفلت من الشرور التي تتعرض لها الشعوب الهمجية حتى يجد نفسه عرضة لما في الجماعات المتحضرة من ضروب من البؤس والشقاء أشد وأقسى ، وصار يجد أن المعيشة وسط الرخاء والخيرات التي تنتجها له الحضارة ، لا تقل صعوبة عن الحياة في الغابات التي درج على المعيشة وسطها .

فهو لم يتخل بعد عن حياة النقلة والترحال ، فتقاليد آبائه ، وتشوقه إلى الصيد والطراد لا تزال حية قوية في نفسه . والملاذات الوحشية التي كانت تسترعيه من قبل في الغابات أضحت تؤذى خياله المضطرب ؛ وصارت ضروب الحرمان التي كان يقاسمها في همجية تبدو له أهون مما هو فيه وسط مظاهر الحضارة ؛ وكذلك تبدو الأخطار السابقة التي كان يعانيها ، أقل جسامة وفظاعة ، حتى صار يوازن بين الاستقلال الذي كان ينعم به بين ظهرائي إخوانه المساوين له ، وبين مركزه الدليل الذي صار له في المجتمع المتحضر . هذا ، ومن جهة أخرى ، مازالت الجاهل التي ظل يعيش فيها طويلاً وهو حر ، على مقربة منه وفي متناوله ، ولا تجشمه العودة إليها من جديد إلا مسيرة بضع ساعات . إن اليئس يغرونه بمبالغ تافهة تبدو ضخمة في نظره ، لقاء أراضي التي أزال الغابات عن جزء منها ، وصار يحصل منها على الكفاف بكل مشقة . وقد تمكنه أموال الأوريين هذه من أن يعيش عيشة سعيدة هائلة بعيداً عنهم كل البعد ، وعندئذ يهجر المحراث ويستأنف العمل بأسلحته الأهلية ، ويعود إلى الجاهل والقفار عودة لارجمة بعدها ؛ وحسبنا ما أشرنا إليه من أحوال قبيلتي الكريك والتشروكي تأييداً لصدق هذه الصورة التي رسمناها .

وليس شك في أن الهنود قد أبدوا في القليل الذي أنجزوه عبقرية طبيعية لا تقل عما أبدته شعوب أوربية فيما قامت به من جلائل الأعمال . ولكن لا يخفى على القارئ أن الأمم كالأفراد تقضى وقتاً طويلاً لتعلم ، مهما أوتيت من ذكاء فطري ، ومهما أبدت من غيرة وحماة . فبينما كان الهمجيون يحاولون أن يتحضروا ، ظل الأوريون يحدقون بهم من كل جانب ويحصرونهم في نطاق ضيق ، وشيئاً فشيئاً تقابل الجسنان ، وهما الآن متصلان بعضهما ببعض ، اتصالاً مباشراً . فالهندي الهجين يفوق والده الهمجى ، ولكنه لا يزال مع ذلك دون جاره الأبيض بمراحل طويلة ؛ وسرعان ما قام الأوريون بما عندهم من موارد ، وما لديهم من معارف ، بانتحال معظم المزايا التي كان يمكن أن يفيد منها الهنود من جراء تملكهم الأراضي . فقد حلوا بين ظهرائهم واشتروا منهم الأراضي بأجنس الأثمان ، أو هم احتلوها عنوة ، أما الهنود أنفسهم فقد أرهقتهم المنافسة التي لا قبل لهم بالصمود

أمامها ، فأصبحوا منعزلين في عقر دارهم . ولم يعد جنسهم سوى جالية قليلة من الأعراب المشاغبين وسط شعب كثير العدد بيده القوة والسلطان .

قال جورج واشنطن^(١) في رسالة له في الكونغرس « نحن أكثر استنارة من الشعوب الهندية ، وأقوى منها ، فالشرف يقتضينا إذن أن نعاملهم بالكرم الواسع لا بالرفق فحسب ... » . إلا أن هذه السياسة النبيلة الرشيدة لم تحمد من يصفى إليها ، ويسير عليها . فقد كان استبداد الحكومة يؤيد جشع المستوطنين عادة . ومع أن قبائل «التشروكي» قامت في إقليم سكنوه قبل أن يصل الأوربيون إلى هذه القارة ، وعلى الرغم من أن الأمريكيين كثيراً ما عاملوهم كما يعاملون الأمم الأجنبية ، فإن الولايات المحيطة بهم آبت أن تعترف بهم أمة مستقلة ، وجعلت تخضع أبناء الغابة هؤلاء للموظفين من الأمريكيين ، ولعادات الأمريكيين وقوانينهم . فدفع الفقر هؤلاء البائسين إلى الأخذ بأساليب الحضارة ، ويدفعهم الظلم الآن إلى العودة إلى البراري ، فجعل كثيرون منهم يغادرون الأراضي التي شرعوا في إعدادها للزراعة ، ويعودون إلى حياة الهمجية .

لو أنا اعتبرنا الإجراءات الاستبدادية التي اتخذتها الهيئات التشريعية في الولايات الجنوبية ، وسلوك حكامها ، والأحكام التي أصدرتها محاكمها - سوف نفتتح بأن الطرد الجماعي للهنود إن هو إلا النتيجة النهائية التي أصدرتها محاكمها التي تتجه إليها كل جهود السياسة في تلك الولايات . فالأمريكيون الذين في هذا الجزء من الاتحاد ينظرون بعين الحسد والطمع إلى الأراضي التي مازالت في أيدي الهنود ، وهم يعلمون أن هذه القبائل لم تفقد بعد تقاليد الحياة الهمجية ، وأنهم قبل أن توثق الحضارة الروابط التي بينهم وبين الأرض الزراعية نهائياً ، كانت النية مبيتة لإجبارهم على الرحيل عنها ، وذلك يدفعهم إلى اليأس . فبعد أن عانت قبيلتا «الكريك» و «التشروكي» الكثير من صنوف الاضطهاد على أيدي ولايات مختلفة ، التجأت إلى الحكومة المركزية التي لم تكن قد أصبحت بعد جامدة الحس ، لا تشعر بكل ما حل بهذه الأقوام من كوارث . وكانت الحكومة هذه ترغب مخلصاً في إنقاذ ما تبقى من الأهالي الهنود وتدعهم أحراراً ، في ملكيتهم لذلك الجزء من الإقليم الذي كفله لهم الاتحاد . ولكن عندما أخذ ينفذ هذه الخطة ، هبت الولايات تقيم الصعوبات الكأداء في سبيله وقاومته مقاومة شديدة حتى اعترم أن يأخذ بالطريق الأسهل وأن يدع يضع قبائل همجية تهلك ، كما هلك نصفها فعلاً من قبل ، كل ذلك حتى لا يعرض سلامة الاتحاد الأمريكي للخطر .

ولكن الحكومة «الفدرالية» التي عجزت عن حماية الهنود كانت راغبة في التخفيف مما يعانونه من المتاعب الكثيرة التي جررها عليهم نكد الطالع ، وبهذه النية قررت نقلهم إلى أقاليم نائية على نفقة الدولة .

فبين خطى عرض ٥٣٢ ، ٥٣٧ ، شمالاً يقع إقليم واسع مسمى أركنساس باسم النهر الذي يرويه . ويحد هذا الإقليم من جهة تخوم المكسيك ، ويحده نهر المسيسيبي من الجهة

(١) أول رئيس للولايات المتحدة (١٧٨٩-١٧٩٧) وقائد شعباً في حروب الاستقلال ضد الإنجليز .

الأخرى ، وتخرقه من كل اتجاه عدة أنهار لا تحصى . أما مناخه فمعتدل وترتبه خصيبة ، ولا يعيش فيه سوى بضعة حشود من الممجين الرحل . فأرادت حكومة الاتحاد أن تنقل فلول سكان الجنوب الأصليين إلى الجزء المجاور لبلاد المكسيك من هذا الإقليم ، وعلى مسافة بعيدة من الأماكن التي استوطنها الأمريكيون .

ففى أواخر سنة ١٨٣١ قيل لنا بصورة التأكيد إن عشرة آلاف هندي قد مضوا فعلا إلى شواطئ الأركنساس . وأن فرقا جديدة تنضم إليهم باستمرار ، ولكن الكونجرس عجز عن أن يوحد عزائم أولئك الذين يميل إلى حمايتهم . نعم إن بعضاً منهم رضوا مختطفين أن يغادروا مباءة الظلم الذى عانوه ، إلا أن أكثر أعضاء العشرة استتارة رفضوا أن يغادروا منازلهم الحديثة ومحصولاتهم التى لاتزال قائمة فى الحقول . فقد كانوا يرون أن عملية التمدن إذا ما طرأ عليها ما يعطلها فلن تعود وتستأنف عملها من جديد ، فهم يخشون على تلك العادات التى اكتسبوها حديثاً أن تضيع منهم وتزول إلى غير رجعة وسط بلاد لاتزال على حالتها الممجية ، وحيث لا شيء قد أعد منها من قبل لبقاء شعب زراعى فيها . فهم يدركون أن دخولهم هذه البرارى والمجاهل سيقابل بمعارضة قوية من حشود معادية ، وأنهم قد فقدوا همة الممجين من غير أن يحصلوا على موارد الحضارة التى تيسر لهم أن يقاوموا هجماتهم عليهم . وزيادة على ذلك فرعان ما استكشف الهنود أن المقر المعروض عليهم ليس إلا مقراً مؤقتاً . فمن ذا الذى يضمن لهم البقاء فى هذا الموضع الجديد آمين فى سلام ، وأن تعهد لهم الولايات المتحدة أن تقيمهم فيه ؟ إن الإقليم الذى كانوا يشغلونه سبق أن خصص لهم بأغلظ الأيمان . نعم إن الحكومة الأمريكية لم تعد تسلبهم أراضيهم ، ولكنها لاتمانع فى تحيفها والعدوان عليها باستمرار ، ثم لاتتصى بضع سنوات حتى يعود هذا الشعب الأبيض نفسه الذى يحتشد حولهم ، ويقضى آثارهم ويطاردهم من جديد إلى مغاور الأركنساس . وعندئذ يتعرضون للشرور ذاتها من غير أن يكون لديهم نفس العلاج . وإذ لامناص من أن الأرض ستضيق بهم ، فلم يعد يتبقى لهم ملجأ يلوذون به سوى القبر .

إن الاتحاد يعامل الهنود الحمر بأقل مما تعاملهم به الولايات المختلفة من حيث الجشع والعنف . ولكن حكومة الاتحاد ، و حكومات الولايات المختلفة ، كلها سواء فى الغدر بهم وسوء النية نحوهم . فالولايات تمنح الهنود ما تسميه نعمة القوانين ، معقدة أن القبائل الهندية تؤثر أن تتراجع على أن تخضع لتلك القوانين . أما الحكومة المركزية التى تعد هذه الخلائق البائسة ملجأ دائماً تأوى إليه فى الغرب ، فعلم حق العلم أنها أعجز من أن تفى لهم بما تعدهم به . وهكذا نجد استبداد الولايات يكره الممجين هؤلاء على التراجع ، ويسره الاتحاد لهم بما يقطعه على نفسه من عهود . وبما له من موارد . ولا يخفى أن هذه الإجراءات كلها إنما تهدف إلى غرض واحد بعينه .

جاء فى الشكوى التى رفعتها قبيلة «التشروكى» إلى الكونجرس :

«لقد شاء الله تعالى ، حاكم هذه الدنيا ، أن يصبح الرجل الهندى ضيلاً قمناً ، والرجل

الأبيض عظيماً شهيراً . فلما حل أجداد شعب الولايات المتحدة بشواطئ أمريكا لأول مرة ، وجدوا الرجل الأحمر قوياً ، ومع أنه كان جاهلاً متوحشاً فقد أكرم استقبالهم ، ومنحهم الأراضي الجافة كي يربحوا فيها أقدامهم المتعبة ، فتقابلوا جميعاً في سلام ، وتصافحوا ، وكان تصافحهم هذا دليلاً على الصداقة . وكان الهنود يقدمون للرجل الأبيض كل ما يحتاج إليه عن ارتياح وطيب نفس . فقد كان الهندي في ذلك الوقت السيد المطاع ، لا ترد له كلمة ، على حين كان الرجل الأبيض هو الطالب المستجدي . ولكن الحال تبدلت الآن غير الحال ، فانقلبت قوة الرجل الأحمر ضعفاً . وكلما ازداد جيرانه عدداً ، ظلت قوته تضعف شيئاً فشيئاً حتى لم يعد يتبقى من تلك القبائل الهندية الكثيرة العدد التي كانت منتشرة في كل هذه الولايات المتحدة سوى عدد قليل . وهذا العدد القليل هو ما أبقاه لهم وباء جارف . فالقبائل الشمالية التي كانت في الزمن القديم قوة كثيرة العدد ، كادت أن تنقرض الآن . وهكذا حدث للرجل الهندي في أمريكا ما حدث . فهل سيكون مصيرنا نحن البقية الباقية مصيرهم كذلك ياترى ؟

«إنا ورثنا الأرض التي نقف عليها الآن عن أجدادنا الذين تملكوها من زمن بعيد هبة لهم من الله تعالى ، وقد ورثناها عنهم بوصفنا أبناءهم ، فرعيناهم وصنأنا مقدسة لأنها تشمل رفات رجالنا المحبوبين . ولم يحدث أبداً أنا قد نزلنا عن حق الميراث هذا ولم نضعه قط . فخيرونا بأى حق يمكن أن يكون لشعب في بلاد ما خيراً من حق الميراث ، ومن حق الحياة الهادئة السليمة من زمن طويل لم تعد الذاكرة تعيه ؟ إنا نعرف أن ولاية جورجيا قالت من زمن قريب أنا خسرننا هذا الحق ، وهو ما قالته أيضاً سلطة الولايات المتحدة التنفيذية . ولكننا نعتقد أن هذا القول قد جاء اعتباطاً . فمتى خسرننا هذا الحق ؟ وما عسى أن تكون تلك الجريمة الكبرى التي اقترفناها ، والتي من أجلها يجب أن نجرد إلى الأبد من بلادنا ومن حقوقنا ؟ أكان ذلك عندما كنا معادين للولايات المتحدة واشتركتنا ضدها مع ملك بريطانيا في صراعها من أجل الاستقلال ؟ إن كان الأمر كذلك فلم لم يعلن هذا العزم في أول معاهدة للصلح عقدت بين الولايات المتحدة وبين رجالنا المحبوبين ؟ ولم لم نذكر فيها فقرة مثل الفقرة الآتية : وتتعهد الولايات المتحدة بأن تكفل السلام لقبيلة «التشروكي» ولكن عقاباً لهم على اشتراكهم في الحرب الماضية ، فالولايات المتحدة ، تعلن أنهم ليسوا سوى مستأجرين لهذه الأراضي ويصح إخراجهم منها إذا ما اقتضت ذلك مصلحة الولايات المجاورة لهم ، فعندئذ يكون هذا الوقت ملائماً لمثل الاستيلاء على هذه الأراضي ، ولكن أحداً لم يفكر في ذلك ، وما كان آباؤنا ليوافقوا على أية معاهدة ترمى إلى تجريدهم من حقوقهم المقدسة لديهم كل التقديس ، وإلى حرمانهم من أوطانهم » .

تلك هي لغة الهنود ، وما يقولونه حق ، وما استشفوه وتنبأوا به يبدو أمراً محتموماً لامناص منه . فمن أية ناحية نظرنا إلى مصائر سكان أمريكا الشمالية الأصليين وإلى مقدراتهم اتضح لنا أن كوارثهم لاعلاج لها . فإن هم بقوا في همجتهم ظل البيض

الأمريكيون في تقدمهم يسوقونهم أمامهم ، وإن حاولوا الأخذ بأسباب الحضارة ، كان اتصاهم بجماعات أكثر منهم مدنية يمرضهم لمعانة الظلم والفقر ، فهم مقضى عليهم بالهلاك إذا ما ظلوا ينتقلون من قفر إلى قفر ، وإن حاولوا أن يستقروا لم يكن لهم أى مفر من الهلاك أيضاً . فمعاونة الأوربيين إيهم لا بد منها لتعليمهم . ومع ذلك فاقتراب الأوربيين منهم يفسدهم ويدفعهم إلى العودة إلى حياة المهجية ، فهم يابون أن يدلوا عاداتهم ماداموا مستقلين بثقونهم في مجاهلهم القصية . وعندما يجدون أنفسهم مضطرين إلى الخضوع لغيرهم ، يكون الوقت الذى يستطيعون فيه تغيير عاداتهم قد فات .

لقد كان الإسبان يطاردون الهنود كالكلاب الكاسرة ، كما تطارد الوحوش ، وخرّبوا الدنيا الجديدة كما تخرب المدينة يأخذها الفاتح عوة ، فيعثر فيها تدميراً وفساداً من غير تمييز ومن غير رحمة . ولكن لا بد للتدمير من نهاية ، ولا بد للجنون من آخر . هذا ، وقد اختلطت بقايا الهنود الحمر الذين أفلتوا من تلك المذابح ، بالفاتحين الذين قهرروهم ، واعتقوا بأخرة ديانتهم ، واعتادوا عاداتهم وآدابهم . أما مسلك أمريكى الولايات المتحدة حيال السكان الأصليين فقد تميز ، من جهة أخرى ، باستمساك غريب بشكلىة القانون . فمادام الهنود متشبثين بعاداتهم المهجية ، لم يتدخل الأمريكيون في شئونهم ، بل عاملوهم على أنهم أمم مستقلة ، ولم يستولوا على أراضي صيدهم إلا بعد اتفاق معهم وتعاهد على الشراء . وإن حدث أن شعباً من شعوب الهنود قد أغير على أراضيهِ وتحيفت ، حتى ضاقت بمن بقى منهم ، فلم يعودوا يستطيعون العيش فيها ، أخذ الأمريكيون بأيديهم في رفق ورحمة ونقلوهم إلى مقبرة لهم بعيدة كل البعد عن أراضي أجدادهم .

لقد عجز الإسبان عن إبادة جنس الهنود الحمر بتلك الفظائع التى ارتكبوها معهم ، وهى فظائع لا نظير لها ، وسمتهم بميسم العار ، بل إنهم لم يستطيعوا حتى أن يجردوهم كل التجريد من حقوقهم التى لهم . أما أمريكىو الولايات المتحدة فقد حققوا هذا الغرض المزدوج بلباقة مدهشة حقاً ، وفي هدوء ، وعلى صورة قانونية بشكل عمل خيرى ، ومن غير إراقة دماء ، أو انتهاك لمبدأ واحد عظيم من مبادئ الإنسانية في نظر العالم . فمن المستحيل أن يقضى على قوم مع احترام للقوانين الإنسانية بأكثر مما فعل الأمريكيون بالهنود الحمر .

مركز السكان السود في الولايات المتحدة والأخطار التى تهدد الجنس الأبيض من جراء وجودهم فيها

لم كان إلغاء الرق ومحو كل آثاره أصعب عند المحدثين منه عند القدامى - يبدو أن تعصب البيض ضد السود في الولايات المتحدة يزداد شدة كلما ألقى الرق - مركز الزوج في الولايات الشمالية وفى الولايات الجنوبية - لماذا يلقى الأمريكيون الرق - العبودية التى تحط من شأن الرقيق ، تودى إلى إفقار أسياهم - موازنة بين ضفة نهر الأوهايو اليسرى وضفته اليمنى - سبب ذلك - تراجع كل من الجنس الأسود والرق نحو الجنوب ، تفسير هذه الحقيقة - الصعوبات التى تحيط بإلغاء الرق في

الجنوب - الأخطار المقبلة - القلق العام - تأسيس مستعمرة سوداء في أفريقيا - لم كان أمريكيو الجنوب يزيدون صعوبات الرقيق شدة على حين أن استمراره يضايقهم .

سيهلك الهنود - منبوذين منزولين ، كما عاشوا منزولين منبوذين ؛ ولكن مصير الزنوج مرتبط ، إلى حد ما ، بمصير الأوربيين . فهذان الجنسان مرتبطان بعضهما ببعض وإن لم يندجما . وهما سواء في عجزهما عن الاندماج التام ، وفي عجزهما عن الانفصال التام كذلك . فأسوأ الشرور التي تهدد مستقبل الاتحاد إنما تنشأ من وجود السود في أراضيه ، فعندما يفكر المرء منا في أسباب الارتباك الحالي ، أو فيما يهدد الولايات المتحدة من أخطار المستقبل ، ينتهي إلى أن هذه الحقيقة الأساسية .

وعلى الجملة يجب أن يبذل الناس جهوداً جبارة متصلة لاهوادة فيها ، ضد الشرور الدائمة ، قبل أن تنشأ وتستشري . ولكن ثم نكبة كبرى قد تسلمت خلسة إلى العالم ، والتي كان من الصعوبة بمكان تمييزها في مبدأ الأمر وسط غيرها من المساويء المألوفة لاستغلال السلطة . لقد بدأها في الأصل إنسان لم يحفظ لنا التاريخ اسمه ، ثم انتشرت في جزء من الأرض انتشار بعض الجراثيم اللعينة ، وجعلت تغذى نفسها بنفسها ، حتى نمت وتكاثرت في غير مشقة ، وظلت تنتشر انتشاراً طبيعياً في المجتمع الذي تنتمي إليه . هذه النكبة هي نكبة الرق . لقد قمعت المسيحية الرق ، ولكن مسيحي القرن السادس أعادوه إلى الحياة استثناء من نظامهم الاجتماعي ، وقصروه على جنس واحد من أجناس البشر . بيد أن الجرح الذي أصاب الإنسانية من جرائمه كان عسير البرء على الرغم من قلة اتساعه .

ومن الأهمية بمكان أن نميز تمام التمييز بين الرق نفسه ، وبين ما يترتب عليه من نتائج وآثار . فالشرور التي نشأت عن الرق مباشرة عند المحدثين تكاد تكون هي التي كانت في الزمن القديم ، وإن اختلفت نتائجها . فقد كان العبيد عند القدماء من نفس الجنس الذي منه ساداتهم . وكثيراً ما كانوا أسرى منهم فعلاً من حيث التعليم ومن حيث الذكاء ، ولم يكن ما يميز السيد عن العبد سوى الحرية ، فإذا ما نال العبد حريته اختلط في يسر وسهولة بمن كان سيده من قبل . حتى صار من الصعب تمييز أحدهما عن الآخر . وهكذا توفرت للقدماء وسيلة بسيطة للتخلص من الرق وما يترتب عليه من عواقب . وليست تلك الوسيلة غير العتق والتحرير ، وقد نجحوا في ذلك عندما عجموا هذا الإجراء . ومع ذلك فقد ظلت آثار الرق ، في الأمم القديمة باقية مدة من الزمن بعد إلغائه ، فتم تمييز طبيعي يدفع الناس إلى احتقار كل من كان دونهم ، حتى بعد أن صار ندهم المساوي لهم ، ومضى عليه وهو كذلك زمن طويل .

والتفاوت الحقيقي الذي يحدثه الحظ والثروة ، أو يحدثه القانون ، يعقبه دائماً تفاوت

وهي راسخ في آداب الشعب وسلوكه . ولكن هذه النتيجة الثانوية من نتائج الرق كان لها حد طبيعي عند القدامى . فقد كان المحقق يشبه كل الشبه المواطنين المولودين أحراراً ، وسرعان ما يصبح من المستحيل تمييزه عن الأحرار .

كان تغير القوانين أشد صعوبة واجهها الناس في الأزمنة القديمة . أما بين المحدثين فأكبر صعوبة يواجهونها هي تغير العرف والعادات . ومن حيث ما يمتنا هنا ، فإن العقبات الحقيقية تبدأ من حيث انتهت العقبات التي كانت في سبيل الأقدمين . ويرجع هذا إلى ظرف معين . فحقيقة الرق المجردة العابرة تتصل اتصالاً وثيقاً بمسألة اللون ، وهي حقيقة طبيعية دائمة . فتقاليد الرق تسم الجنس الأسود بوصمة العار ، كما أن خاصية الجنس الأسود هذه تستديم تقاليد الرق . فلم يحدث قط أن رجلاً أفريقياً أسود هاجر من تلقاء نفسه إلى شواطئ الدنيا الجديدة ، ومن ثم كان جميع من فيها من السود عبيداً ، أو معتقن ، وبذلك صار الزنجي ينقل الوصمة العالقة به إلى الأبد إلى ذريته جميعاً . فإن كان القانون قد ألغى الرق فالله وحده هو القادر على إزالة ما يترتب على هذا الرق من آثار .

لا يختلف العبد في عصرنا الحديث عن سيده ، من حيث وضعه فحسب ، بل يختلف عنه كذلك من حيث الأصل . فإنك قد تتحق العبد الزنجي وتحرره ولكنك لا تستطيع أن تجعله يبدو في نظر الأوربيين أكثر من شخص أجنبي عنهم .

وليس هذا كل ما في الأمر . فإننا لانكاد نعرف بوجود شيء من سمات الإنسانية العامة من هذا المخلوق الأجنبي الذي ولد في الذل وجاء به الرق إلى البلاد الأوربية ؛ فملاحة مخيفة ومفرجة في نظرهم ، وفهمه ضعيف ، وأذواقه وضيفة ، فلا غرو إن علوه مخلوقاً وسطاً بين الناس والحيوان . فبعد أن ألغى المحدثون الرق ظلت فيهم أنواع ثلاثة من التعصب ، يناضلون عنها ، ولا يسهل مهاجتها ، والتغلب عليها أشق جداً من التغلب على مجرد حقيقة الرق : وهذه هي تعصب السيد ، وتعصب الجنس لنفسه ، والتعصب ضد اللون .

فمن العسير علينا كل العسر ، نحن الذين كان من حسن حظنا أن ولدنا بين ظهراني أناس جعلتهم الطبيعة من أمثالنا ، وجعلهم القانون مساوين لنا - من العسير علينا أن ندرك تلك الفروق الكبيرة التي يعز التوفيق بينها ، والتي تفصل الزوج في أمريكا عن فيها من الأوربيين . ولكننا مع ذلك نستطيع أن نحصل على فكرة ضعيفة ، بطريق التشبيه والتمثيل . فقد كانت فرنسا من قبل بلاداً قامت فيها أنواع كثيرة من التفاوت ، خلقها القانون نفسه . فليس ثم شيء أكثر تعلقاً من قصور أو عجز يفرضه القانون وحده على الناس ، ولا شيء يتعارض مع الفطرة الإنسانية أكثر مما تتعارض معها هذه الفوارق الدائمة التي يقيمها القانون بين كائنات واحدة في ظاهرها . ومع ذلك ، فقد ظلت هذه الفروق دهوراً طوياً ، ولا تزال موجودة في مواضع عدة . وقد خلفت في كل مكان آثاراً وهمية لانكاد

تمحوها يد الزمان . فإن كان استئصال التفاوت الذى نشأ بالقانون وحده ، أمراً صعباً إلى هذا الحد ، فكيف يتسنى لنا أن نقضى على تلك الفروق التى تبدو أنها قامت على أساس من القوانين الطبيعية ، وهى قوانين ثابتة لا تتبدل ؟ كلما تذكرت تلك الصعوبة الشديدة التى بها تختلط الهيئات الأرستقراطية ، على اختلاف أنواعها ، مع الشعب ، وحرص الأرستقراطيين البالغ فى المحافظة على حدود استبقاء طبقتهم قائمة دهوراً طوالاً دون أن يعتدى عليها أحد - كلما تذكرت ذلك استولى على اليأس من أن أرى أن أرستقراطية تقوم على أساس من سمات مرئية لامتحنى ، يمكن أن تزول . فأولئك الذى يأملون أن يأتى يوم يندمج فيه الأوروبيون مع الزوج ، هم فى نظرى إنما يخادعون أنفسهم . أما أنا فلم أصل إلى أية نتيجة من هذه النتائج ، سواء عن طريق العقل والاستدلال ، أو بدليل الحقائق الواقعة بذاتها . فحيث ظل الأوروبيون أصحاب القوة والسلطان إلى الآن استبقوا الزوج فى مراكز وضيعة ، أو فى الرق . أما حيث الزوج هم أصحاب السلطان ، فقد عملوا على القضاء على البيض . هذا ، هو الميزان الوحيد الذى حدث بين الجنسين .

إن الحاجز القانونى الذى يفصل هذين الجنسين الواحد عن الآخر ، قد أخذ يزول الآن فى بعض أجزاء الولايات المتحدة ، أما الحاجز الذى يفصل بين الآداب الأخلاقية فمازال قائماً . فالرق أخذ فى التراجع ، على حين أن التعصب العنصرى الذى تولد عنه ثابت لا يزول ، فلا بد أن أدرك كل من سكن الولايات المتحدة أن الزوج فى أجزاء الاتحاد التى لم يعودوا فيها أرقاء ، لم تقترب أحوالهم اقتراباً كبيراً من أحوال البيض . ونرى على النقيض من ذلك ، أن التعصب العنصرى أقوى فى الولايات التى ألغت الرق منه فى الولايات المتحدة التى مازال قائماً فيها ، ولا يوجد ولاية بلغ فيها هذا التعصب العنصرى ما بلغه فى الولايات التى لم تعرف الرق أبداً .

صحيح أن القانون فى الأجزاء الشمالية من الاتحاد يسمح بعقد الزواج الشرعى بين البيض والسود ، ولكن الرأى العام يسم كل رجل أبيض يعقد على زنجية ، بميسم العار ، ومن العسير ذكر مثال واحد لزواج من هذا القبيل . لقد منح الزوج حق الانتخاب فى كل ولاية تقريباً من الولايات التى ألغى فيها الرق ، ولكن عندما يجيء الزنجى ليعطى صوته يجد حياته فى خطر ، وإن نزل به أى اضطهاد فله الحق فى أن يرفع ظلامته إلى القضاء ، ولكنه لا يجد أمامه عندئذ سوى قضاة من البيض ، والقانون يبيح له أن يعمل محلفاً ولكن تعصب البيض يمنعه من ممارسة هذه الوظيفة ؛ وأبناء الزوج لا يقبلون مع أبناء البيض فى مدرسة واحدة ، وليس فى مقدور الزنجى أن يحصل بأى مبلغ من الذهب على مقعد فى مسرح فيجلس إلى جانب سيده السابق .

وفى المستشفيات نجد الجنسين منعزلين تماماً الواحد عن الآخر . إن للزوج أن يعبدوا الإله نفسه الذى يعبده البيض ، ولكن على أن يكون ذلك فى محراب آخر مختلف ، وفى

كثائس الزوج الخاصة حيث يقوم قسهم الخاصون بخدمتهم الدينية؛ فأبواب السماء ليست مغلقة في وجوههم، ولكن عدم المساواة يلازمهم حتى أبواب الآخرة. فإذا ما توفي الزنحي أقصيت رفاته؛ فالنفاوت في الأحوال يظل قائماً حتى في الموت. وهكذا نجد الزنحي حراً طليقاً، ولكنه لا يستطيع أن يمارس حقوق الرجل الأبيض ولا يتمتع بمثل مسراته وأعماله، حتى ولا آلامه، بل ولا الموت نفسه، ذلك الذي قيل فيه أنه يسوى بين الجميع. فهو لا يستطيع أن يلتقى مع الرجل الأبيض على قدم المساواة، لافي الحياة ولا في الممات.

ففي الجنوب حيث لا يزال الرق قائماً، لا يبنذ البيض الزوج ويقصونهم عنهم هذا الإقصاء الشديد، بل إنهم ليشركونهم في بعض الأحيان في الأعمال التي يقومون (البيض) بها، وفي مسراتهم وملاهيهم، ويختلطون بهم إلى حد ما، فإن كان التشريع في الجنوب قاسياً على الزوج كل القسوة، فالعادات فيه أرفق بهم وأكثر تسامحاً معهم. ففي الجنوب لا يخشى السيد أن يرفع عبداً له إلى مستواه، لأنه واثق من أن في استطاعته أن يذله متى شاء ويضع أنفه في الرغام. أما في الشمال فلم يعد الرجل الأبيض يدرك بشكل واضح ذلك الحاجز الذي يفصله عن الجنس المقوت، فهو يحرص كل الحرص على أن يتحاشى الزوج خشية أن يأتي عليهم يوم يختلطون فيه اختلاطاً كبيراً بجنسه هو نفسه.

تؤكد الطبيعة أحياناً حقها بين أمريكي الجنوب، فتقيم بين البيض والسود مساواة عابرة. أما في الشمال فإن الكبرياء قد تكف أكثر الأهواء الإنسانية قوة وسلطاناً، فقد يقبل الأمريكي الشمالي أن يتخذ له من الزنحية متعة عابرة في ملذاته، إن كان القانون يمنعه من اتخاذها زوجة شرعية له تشاركه فراشه، ومع ذلك فإنه ينكسر فزعاً منها إذا جاز أن تكون له زوجاً شرعية.

إن التعصب الذي جعل البيض في الولايات المتحدة ينفرون كل النفور من الزوج، ليزداد كلما تحرر السود وأصبحوا عتقاء؛ وكذلك يزداد ما بينهما من تفاوت في العادات الأخلاقية، كلما منع القانون نفسه هذا التفاوت. ولكن إن كان الموقف النسبي للجنسين اللذين يقطنان الولايات المتحدة كما وصفت ترواً، فلماذا ألغى الأمريكيون الرق في شمال الاتحاد؟ وما الذي دعاهم إلى الاحتفاظ به في جنوبه؟ وإلى زيادته قسوة على قسوته؟ ليس ثمة صعوبة في الإجابة على هذا السؤال. فلم يكن إلغاء الرق في الولايات المتحدة لمصلحة الزوج، بل كان لمصلحة البيض أنفسهم.

لما جرى بالزوج إلى أمريكا لأول مرة في سنة ١٦٢١ أنزلوا في فرجينيا، وبذلك يكون نظام الرق في أمريكا قد نشأ أول ما نشأ في الجنوب، كما نشأ في غيرها من أجزاء العالم، ثم جعل ينتشر من مكان إلى آخر، ولكن عدد الأرقاء كان يتناقص كلما اتجهنا إلى الولايات الشمالية. هكذا، وكان عدد الزوج محدوداً دائماً في ولايات نيويورك.

ولم يكد يمضى قرن من الزمان على تأسيس المستعمرات حتى استبانت لأصحاب المزارع ، فى دهشة بالغة ، حقيقة لم تكن معهودة لهم من قبل . وهى أن المديرىات التى كانت خالية من العبيد نسبياً ، ازداد سكانها عدداً ، وثرورة ، وسعادة بأسرع مما ازداد سكان الولايات التى بها عدد كبير من العبيد . ومع ذلك كان السكان فى الأولى مضطرين إلى القيام بزراعة أراضيم بأنفسهم ، أو بواسطة عمال مأجورين ، أما سكان المديرىات الثانية فكان تحت تصرفهم أيد عاملة كثيرة لا يدفعون لها نظير عملها أجراً . وهكذا كان الشغل والنفقات فى جانب ، والكسل والاقتصاد فى الجانب الآخر . ومع ذلك كان الجانب الأول خير النظامين ، وأفيدهما . وقد تبين للناس أن ليس من أهين تفسير هذه النتيجة ، فجميع السكان من جنس أوروى واحد ، وعاداتهم واحدة ، وحضارتهم واحدة وقوانينهم كذلك واحدة ، والفروق التى بينهم ضئيلة كل الضالة .

ودار الزمان دوراته مع ذلك ، وانتشر الأمريكيون الإنجليز من شواطئ المحيط الأطلسى ، وتغلغلوا باستمرار فى مجاهل الغرب حيث وجدوا فيه أراضى جديدة وأنواعاً من المناخ لا عهد لهم بها ؛ فعلمهم أن يتغلبوا على أنواع شتى من العقبات صادفتهم فى طريقهم ، واختلطت أجناسهم بعضها ببعض ؛ فسكان الجنوب اتجهوا نحو الشمال ، وانحدر أهل الشمال إلى الجنوب . وفى وسط هذه الأسباب جميعها كانت النتيجة نفسها تتجلى لهم فى كل خطوة يخطونها . فعلى الجملة ، كان عدد السكان فى المستعمرة التى لا عبيد فيها ، يزداد عدداً ورخاء أكثر منه فى المستعمرات التى استكثرت من استخدام العبيد . وكلما أبعد الإنسان ، اتضح له فى جلاء أن الرق القاسى كل القسوة على العبيد ، مضر كذلك بسادة العبيد أنفسهم .

وقد لقيت هذه الظاهرة الدليل الحاسم على صحتها ، عندما بلغ الأمريكيون ضفاف نهر الأوهايو ، ذلك النهر الذى أسماه الهنود بهذا الاسم ، تعبيراً عن رأيهم فيه - فمعنى الأوهايو : النهر الجميل . فهو يروى وادياً خصيباً من أمرع الأودية التى اختار الإنسان أن ينزلها ويتخذ له فيها مسكناً ؛ فعلى ضفتى هذا النهر تمتد أراضى متماوجة تقدم تربتها للفلاح كل يوم كنوزاً لاتنفد ، والجو صحى على ضفتى النهر كليهما ، والمناخ معتدل ، وكل ضفة منهما لولاية عظيمة ؛ فالولاية التى على الضفة اليسرى تتبع حدودها تفتيات النهر العديدة ، وتسمى كنتكى . أما الولاية الأخرى ، وقد استعارت اسمها من النهر ذاته ، الأوهايو ، ولا تختلف الولايتان بعضهما عن بعض إلا فى نقطة واحدة ، فولاية « كنتكى » رضيت بوجود الأرقاء فى بلادها ، على حين رفضت ولاية « أوهايو » قبولهم فى أراضيا رفضاً قاطعاً . وعلى هذا ، فالسائح الذى تصادف وكان فى سفينه وسط هذا النهر ، ينساق مع التيار حتى يلتقى الأوهايو بنهر الميسىسى - هذا السائح يدرك أنه قد سار إذن بين الحرية والاسترقاق ، وما عليه إلا أن يلقى نظرة على ما حوله ليدرك فى الحال أى النظامين أصلح لبنى الإنسان .

فعد ضفة النهر اليسرى تجذب السكان قليلين ومبعثرين ، وترى من حين إلى حين ، طائفة من العميد يتسكعون في غير اكتراث في الحقول التي تكاد تكون مقفرة ، وتعود الغابات البدائية إلى الظهور باستمرار في كل مكان . فكأن المجتمع كله في غفوة ، والإنسان حامل كسلان ، على حين تبدو الطبيعة وحدها مسرحاً لنشاط الحياة .

وتسمع ، على النقيض من ذلك ، في الضفة اليمنى من النهر نفسه ضوضاء مختلطة تعلن للناس من مسافات بعيدة وجود الصناعة - وترى الحقول حافلة بما يشير بغلات وفيرة ، وتتكشف المساكن عن حسن ذوق العمال وعن نشاطهم الجم . ففي كل ناحية من النواحي تجذب الرخاء والخير موفورين ، ويبدو لك الإنسان ثرياً هنيئ البال ولاغرو في ذلك فهذا جزاء العمل .

تأسست ولاية كنتكى سنة ١٧٧٥ ، وتلتها ولاية أوهايو بعد ما لايزيد على اثنتي عشرة سنة ، ولكن اثنتي عشرة سنة في أمريكا تعادل أكثر من نصف قرن في أوروبا . فعدد سكان ولاية أوهايو اليوم يزيد على سكان كنتكى بربع مليون من النفوس . ومن السهل إدراك النتائج المختلفة التي تترتب على كل من الرق والحرية ، وتكفى ليان ما نلاحظه من فروق بين حضارة الأقدمين وبين حضارتنا في الوقت الحاضر .

وعلى ضفة نهر الأواهايو اليسرى يختلط العمل بفكرة الرق ، على حين أنه على الضفة اليمنى يقترن بفكرتي الرخاء والتقدم . ففي جانب العمل منحنط وفي آخر موضع تمجيد وتكريم ، فأنت لا تجد في الإقليم الأول عمالاً يرض البشره لأنهم يخشون أن يكونوا مثل الزنوج . فكل الشغل يقوم به العميد .

أما في الإقليم الثاني ، فلا تصادف أحداً كسلان ؛ فشاط اليئض وذاكؤهم يتجلبان في كل نوع من أنواع العمل . فالرجال الذين عليهم أن يزرعوا أراضى كنتكى الغنية جهلاء جامدو الحس ، على حين أن الشيطين المستترين لا يعملون شيئاً ، أو ينتقلون إلى أوهايو ، حيث يستطيعون أن يعملوا في غير استحياء .

حقاً إن المزارعين في كنتكى ليسوا مضطرين إلى دفع أجور للعميد الذين يستخدمونهم في الزراعة ، ولكنهم لا يجنون من عملهم سوى أرباح ضئيلة ، على حين أن الأجور التي تدفع للعمال الأحرار ترد إلى المزارع مع أرباحها في قيمة ما يؤدونه من أعمال وخدمات . فالعامل الحر يعمل بأجر ولكنه يؤدي عمله بأسرع مما يؤديه العبد الرقيق . وسرعة الإنجاز ، كما لا يخفى هي عنصر من أهم عناصر الاقتصاد . فالرجل الأبيض يبيع خدماته ولكنها لا تشتري إلا إذا كانت خدمات نافعة حقاً . أما الرجل الأسود فلا يستطيع أن يطلب أجراً على ما يعمل ، ولكن نفقات قوته والحفاظة عليه دائمة مستمرة . فهو يجب أن يعال في شيخوخته ، كما يعال في كهولته ، وكذلك يعال في طفولته التي لا ربح من وراثتها ، كما يعال في أيام شبابه المنتجة ، ويعال في مرضه وفي صحته . ومع ذلك

فلا مناص من تحمل نفقات ذلك للحصول على خدمات أى الطبقتين من الرجال : العبيد والأحرار . فالعامل الحر يتسلم أجره نقداً ، أما العبد فيتسلمه تعليماً وملبساً ورعاية . والنقود التى ينفقها السيد على كفالة أرقائه تنفق تدريجياً وتفصيلاً فلا تكاد تحس ، على حين أن مرتب العامل من الأحرار مبلغ طيب يدفع جملة ، ويبدو أنه لا يغنى إلا من يتسلمه . ولكن الرقيق يكون قد كلف سيده فى النهاية أكثر مما يكلفه الخادم الحر ، فضلاً عن أن عمله أقل إنتاجاً .

هذا ، وقد امتد تأثير الرق إلى أبعد من ذلك مدى . فقد بلغ به الأمر أن أثر فى أخلاق السادة ملاك الرقيق أنفسهم ، فطبع آراءهم وأذواقهم بطابع واحد معين . فقد وهبت الطبيعة السكان الذين يقيمون على ضفتى نهر الأوهايو ميلاً إلى الجد والنشاط والمغامرة ، إلا أن استخدام هذا الميل العام فيهم كان يختلف فى سكان كل ضفة عن الأخرى . فالرجل الأبيض الساكن على الضفة اليمنى من النهر مضطر إلى أن يعمل ليعيش من كدحه وعرق جبينه ؛ فهو يعد السعادة فى هذه الدنيا الغرض المقصود من وجوده فيها . ولما كان الإقليم الذى يعيش فيه يتيح مجال نشاطه موارد لا تفيض ودواعى شتى تستثيره باستمرار ، صار تمسه للمكاسب واقتناء الأموال يفوق حدود الطمع البشرى المهدودة . ولما كانت الرغبة فى الغنى مصدر قلقه وأصل عذابه ، صار يسلك فى جرأة وإقدام كل طريق يوجهه الحظ إليه ، فليس يهمه أن يكون ملاحاً أو رائداً أو صناعاً أو مزارعاً ، ويتحمل فى صبر وثبات متاعب الأعمال ، ومشاق الأخطار التى قد يتعرض لها صاحب كل مهنة من هذه المهن المختلفة . وكان ما يديه من الذكاء وسعة الحيلة فى ذلك كله ليستدعى العجب ويستثير الدهشة حقاً ، حتى إنك لتلمس فى سعيه وراء اجتناء المكاسب نوعاً من أنواع البطولة .

أما أهالى كنتكى القاطنون على الضفة اليسرى من النهر فلا يحتقرون العمل فحسب ، بل يحتقرون معه كل ما يؤدى العمل إلى النجاح فيه .

فكما أن الكنتكى يعيش فى دعة وخمول - من جراء اعتماده على سواه - صارت أذواقه أذواق الكسالى من الناس ؛ فهو يسعى وراء مرحة ومسراته أكثر مما يسعى وراء جمع الثروة وكسب المال ، فكأن النقود قد فقدت جزءاً كبيراً من قيمتها فى نظره . فاهمة التى يوجهها جاره إلى اجتناء المكاسب ينفقها هو فى الطراد ، والتدرب على الحروب ، فبمعنى ممارسة القرينات البدنية العنيفة ، ويحسن استعمال السلاح ، فقد تعود من سن مبكرة أن يعرض حياته للأخطار فى المبارزة ، والمعارك الفردية . وهكذا ترى أن الرق لا يمنع البيض من أن يثروا فحسب ، بل إنه يمنعهم حتى من الرغبة فى أن يكونوا أثرياء . ولما كانت الأسباب نفسها تعمل فى اتجاهين متضادين طيلة القرنين الماضيين

في المستعمرات الإنجليزية التي في أمريكا الشمالية ، فقد أدى ذلك إلى حدوث بون شاسع بين قدرة الإنسان التجارية في الشمال ، وقدرته في الجنوب . فليس غير الشمال اليوم يملك السفن والمصانع والسكك الحديدية والترع . وهذا الفرق مشاهد محسوس ، لافي المقارنة بين الشمال والجنوب فحسب ، بل وعند مقارنة أهالي الجنوب أنفسهم بعضهم ببعض . فالناس الذين يقومون بعمليات تجارية ، ويحاولون أن يفيدوا أكبر فائدة من عمل الرقيق ، في أقرب ولايات الاتحاد للجنوب ، كانوا كلهم أو أكثرهم ممن هاجروا إليها من الشمال . فأهالي الولايات الشمالية ينتشرون باستمرار في ذلك الجزء من البلاد الأمريكية حيث لا يجشون على أنفسهم شيئاً من جراء المنافسة . فهم يستكشفون موارد جديدة فات السكان أن يقفوا عليها . ولما كانوا مضطرين إلى اتباع نظام لا يوافقون عليه فقد نجحوا في أن يعملوا على أن يفيدوا منه أكثر ممن أسسوه ، ولازالوا يصونونه ويحافظون عليه .

فلو أني أردت الاستمرار في عقد هذه المقارنة لاستطعت أن أبرهن في يسر على أن جل الفروق التي تلاحظ بين أخلاق الأمريكيين الذين في الولايات الشمالية وإخوانهم الذين في الولايات الجنوبية قد نشأت بسبب وجود هذا الفرق ، لولا أن هذا الاستمرار في المقارنة قد يصرفني عن موضوعي الأصلي . ولست أقصد هنا أن أسرد كل النتائج التي ترتبت على وجود الرق ، بل أقصد بيان ما له من تأثير في الرخاء المادي في البلاد التي سمحت بوجوده فيها .

ولابد أن كان تأثير الرق في الإنتاج معروفاً بشكل ناقص وقاصر كل القصور في العصور القديمة ، فقد كان أنتد منتشراً في بلاد العالم المتحضر كلها ، أما البلاد التي لم تعرفه فكانت بلاداً همجية .

والحق أن المسيحية لم تقض على الرق إلا بالدفاع عن حقوق الأرقاء . ومن الميسور في الوقت الحاضر أن نهاجم الرق باسم السادة ملاك الرقيق ، وهنا تلتقى المصلحة والأخلاق .

فلما تكشفت هذه الحقائق لسكان الولايات المتحدة كان الرق قد أخذ يتراجع أمام ازدياد الخبرة وتقدمها . لقد بدأ في الجنوب ، ومن الجنوب أخذ ينتشر إلى الشمال ، ولكنه عاد الآن يتراجع من جديد . لقد بدأت الحرية في الشمال ، وظلت تمتد باستمرار نحو الجنوب . وتشكل بنسلفانيا الآن الحد الأقصى للرق في ولايات الشمال ، ولكن الرق قد تضعض حتى في نطاق هذه الحدود ذاتها . ففي ولاية ماريلاند ، وتقع أسفل بنسلفانيا مباشرة ، يعمل الناس على إلغائه ، وفي فرجينيا الملاصقة لماريلاند يتناقشون في الرق وما يجره من أضرار .

لا يمكن أن يحدث تغيير كبير في المؤسسات البشرية دون أن يكون قانون الوراثة سبباً من أسبابه . فلما قام القانون الذي يقضى بتوريث الابن الأكبر وحده في الجنوب ، لم يكن

يمثل كل أسرة فيه سوى فرد واحد ثرى غير مضطر للعمل ليعيش ، ولا هو يجد ما يدعوه إليه . وكان سائر أعضاء الأسرة الذين قضى القانون بجرمانهم من الاشتراك في الميراث يحيطون بأخيم الأكبر ، ويعيشون معه العيشة نفسها . فقد أضحووا عالة عليه يعيشون كالنبات الطفيل على غيرهم . هذا وقد حدث الشيء نفسه في الأسر القاطنة في الجنوب كلها ، ومازال يحدث في أسر النبلاء في بعض الأقطار في أوروبا . وذلك أن الأبناء الصغار يظلون ميالين إلى حياة الدعة والكسل التي يجيهاها أخوهم الأكبر ، من غير أن يكون لديهم ما يشبه ثروته في شيء . ويبدو أن أسباب هذه النتيجة في أوروبا وفي أمريكا متشابهة . فقد كَوَّن جميع البيض الذين في جنوب الولايات المتحدة هيئة أرستقراطية على رأسها عدد معين من الأفراد ذوى الثراء الواسع الدائم والفراغ المتوارث . لقد ظل زعماء البلاد الأمريكيون هؤلاء يستمسكون في الهيئة التي يمثلونها ، بالتقاليد التي يتعصب لها الجنس الأبيض ، ويمجدون الكسل ؛ وكانت هذه الأرستقراطية تضم فقراء كثيرين ليس منهم من يميل إلى الاشتغال بشيء ما . فأعضاؤها يفضلون الفقر على الشغل . فلا غرو أن كان الزوج لا يجدون فيها منافساً ، فمهما اختلفت الآراء في قيمة ما يؤديه الزوج هؤلاء من الأعمال فلانماص من استخدامهم إذ ليس ثمة من يعمل غيرهم .

فما أن ألغى قانون الوراثة (وهو ذلك القانون الذى يقضى بتوريث الابن الأكبر وحده) حتى أخذت الثروات تتناقص ، وهبطت جميع الأسرات في الولايات المتحدة كلها في وقت واحد إلى الحالة التي تقتضى المرء أن يعمل ليعيش . وما زلنا نرى اليوم أغنياء ، ولكنهم لم يعودوا يكونون هيئة وراثية متضامنة الصفوف ، ولم يستطيعوا أن يتخذوا لهم خطة معينة للسلوك يتأبرون عليها ويثرونها في كل طبقات المجتمع . فأولاً اتفق الناس فيما بينهم اتفاقاً عاماً على ترك ذلك التعثر الذى وصم العمل بوصمة العار ، فازداد عدد الفقراء المحتاجين ، ورخص لهم أن يكسبوا رزقهم بعرق جبينهم دون أن يتولاهم أى خجل من أنهم يعملون ، وعلى هذا كان من أهم النتائج المباشرة التي ترتبت على تقسيم الضياع بالتساوى ، خلق طبقة من العمال الأحرار - وما إن قامت المنافسة بينهم وبين العبيد حتى استبان للناس قصور عمل العبيد عن عمل الأحرار ، وعندئذ يأخذ الناس في أن يهاجموا الرق في صميم مبدئه الأساسى الذى قام عليه ، وهو مصلحة السيد المالك نفسه .

وكلما تقلص الرق أخذ الزوج يعودون أدراجهم ، واتجه الرق معهم شطر الأقاليم المدارية حيث نشأ أصلاً . ومهما بدت لنا هذه الحقيقة عجيبة لأول وهلة ، فمن السهل تفسيرها . ذلك أن الأمريكيين وإن ألفوا مبدأ الرق ، فإنهم لم يجرروا العبيد . وحسبى شرحاً لهذه المسألة أن أمثل لها بولاية نيويورك التي قررت في سنة ١٧٨٨ منع بيع الرقيق في نطاق حدودها ، وهى طريقة غير مباشرة لتحريم استيراد العبيد . ومن ثم لم يعد عدد الزوج يزداد إلا بنسبة ازدياد السكان الطبيعية . ولكن بعد مضي ثمانية أعوام اتخذت

تلك الولاية خطوة أخرى أكثر حسماً ، ففكرت أن يكون أبناء الأرقاء الذين يولدون فيها بعد الرابع من يولية سنة ١٧٩٩ أحراراً ، وبذلك لا يتسنى أن تحدث أية زيادة في عددهم . ومع أن الأرقاء ظلوا موجودين ، فإننا لانكون بعيدين عن الصواب لو قلنا إن الرق نفسه قد أُلغى .

فعندما تلقى إحدى الولايات الشمالية استيراد الرقيق على هذا النحو ، لم يعد فيها محل لجلب الرقيق من الجنوب لبيع في أسواقها . ومن جهة أخرى فالغاء بيع الرقيق في هذه الولاية يجعل مالکهم عاجزاً عن التخلص منهم (فقد صاروا بذلك كلاً ثقیلاً عليه) إلا ينقلهم إلى الجنوب - ولكن عندما تعلن ولاية من ولايات الشمال أن ابن العبد يولد حراً - فإن سعر العبد يهبط هبوطاً كبيراً في السوق ، لأن ذريته لم تعد ضمن الصفقة ، وعندئذ يكون من مصلحة المالك أن ينقله إلى الجنوب . وهكذا صار القانون نفسه الذى يحرم على عبيد الجنوب أن ينتقلوا إلى الشمال يدفع عبيد الشمال إلى الانتقال إلى الجنوب .

ولكن ثمة سبب آخر أوجه من كل سبب ذكرناه من قبل . لقد صارت الحاجة إلى العمال الأحرار تشتد بتناقص عدد العبيد في الولاية . كلما صار العمل يجرى بأيدي العمال الأحرار .. قل إنتاج العبيد ، وأصبح العبد ملكاً عديم القيمة لصاحبه ، أو عبأً عليه . فمن مصلحة المالك إذن أن يصدره إلى الجنوب حيث لا يخشى شيئاً من جراء المنافسة عنها . وعندئذ استبان للناس أن إلغاء الرق لم يحرر العبيد ، وإنما اقتصر على نقلهم من يدى سيد إلى يدى آخر ، ومن الشمال إلى الجنوب .

وفي الحق لم يهاجر الزوج العتقاء ، والذين ولدوا من أبوين زنجيين ، بعد إلغاء الرق ، من الشمال إلى الجنوب .. ولكن مركزهم إزاء الأوربيين لم يعد يختلف كثيراً عن مركز الهنود . فقد ظلوا شبه متحضرين محرومين من حقوقهم وسط عدد كبير من السكان يفوقونهم من حيث الثروة والعلم ، ومعرضين لظلم القانون ولتعصب الأهالى العنصرى . هذا ، ومن نواح أخرى ساءت حالتهم حتى أصبحت أسوأ من حال الهنود ، وأدعى منها للثناء . فقد ظلت ذكرى عبوديتهم تطاردهم ، فضلاً عن أنهم لا يستطيعون أن يطالبوا بملكية شيء من الأراضي .. فهلك الكثيرون منهم شر هلكة ، وتجمع الباقون في العواصم يقومون بأداء أخط الأعمال ، ويمحون حياة كلها بؤس وقلق .

فإن ظل عدد الزوج يزداد مع ذلك بنفس النسبة التى كان يزداد بها في العهود التى لم يكونوا قد حصلوا فيها على حريتهم بعد ، فإنهم ، مع ازدياد عدد البيض بسرعة متضاعفة ، بعد إلغاء الرق ، سرعان ما يضيعون وسط شعب أجنبي عنهم .

إن عدد سكان الإقليم الذى يزرع بأيدي العبيد أقل عادة من عددهم في الإقليم الذى يعمل في زراعته عمال من الأحرار .. وزيادة على ذلك فإن أمريكا لاتزال بلاداً جديدة ، فلا غرو أن آتت الولاية تعد نصف مأهولة عندما يلغى الرق فيها . وما إن يلغى حتى تمس الحاجة إلى العمال الأحرار ، وسرعان ما يفد من كل أرجاء البلاد جماعات من

المغامرين الجريئين ليستفيدوا من الموارد الجديدة التي انفتحت للعمل والصناعة . وما أسرع ما تقسم الأراضي بينهم ، وتنال كل أسرة من أسر البيض نصيبها منها . وفضلاً عن ذلك فإن هجرة الأوربيين إلى البلاد تتجه إلى الولايات الحرة ، فماذا يستطيع المهاجر الفقير أن يعمل بعد أن عبر المحيط الأطلسي سعياً وراء الراحة والسعادة إذا ما نزل بلاداً يوسم فيها العمل بميسم العار والذلة ؟

وهكذا يزداد عدد السكان البيض زيادة طبيعية ، فضلاً عن ازدياده من جراء كثرة حشود المهاجرين الذين يتدفقون على البلاد ، على حين لم يزد عدد السكان السود شيئاً من جراء الهجرة ، بل أخذ يتناقص ؛ وسرعان ما انقلبت النسبة التي كانت بين الجنسين . فيصبح الزوج بقية ضئيلة بانسة مجرد قبيلة من الرحل المساكن ضاعت بين شعب ضخم العدد يملك الأراضي حتى لم يعد أحد يحس بوجود السكان السود إلا من جراء الظلم الواقع عليهم والمتاعب الشاقة التي يعانونها .

هذا ، ولم يظهر الجنس الزنجي قط في عدد من الولايات الغربية ، وكان عدد السود يتناقص بسرعة في جميع الولايات الشمالية ، وبذلك صارت مشكلة أحوال مستقبلهم الكبرى محصورة في نطاق ضيق حيث تصبح فيه أقل خطورة ، وإن لم تصبح بذلك أيسر حلاً . وكلما نزلنا جنوباً تعسر إلغاء الرق إلغاءً تكون من ورائه الفائدة . ومرد ذلك إلى عدة أسباب جغرافية ، من الخير أن نثبتها هنا .

فأول هذه الأسباب المناخ . فمن المعروف كل المعرفة أنه كلما اقترب الأوربيون من المدارين شق عليهم العمل وأرهقهم ، ويؤكد لنا كثيرون من الأمريكيين أن العمل في حدود خطوط عرض معينة يكون قاتلاً للأمريكيين الذين يعملون فيها ، على حين يستطيع الزوج أن يعملوا فيها آمنين من أى خطر يصيبهم ، ولكن الخبرة لا تؤيد هذا الرأي ، فهو في مصلحة سكان الجنوب وحمولهم . فليست أجزاء الاتحاد الجنوبية بأشد حرارة من جنوب كل من إيطاليا وإسبانيا . ولعل سائلاً يسأل عن السبب الذي دعا الأوربيين ألا يحسنوا العمل هناك ، بقدر ما يحسنونه في هذين البلدين الأخيرين . فإن كان الرق قد ألغى من إيطاليا ومن إسبانيا من غير أن يؤدي إلى هلاك السادة أصحاب العبيد ، فما الذي يمنع الشيء نفسه من أن يحدث في الاتحاد ؟ إنى لأصدق أن الطبيعة قد منعت الأوربيين في جورجيا ، وفلوريدا من أن يعملوا على استنبات مواد قوتهم بالعمل في فلاحه الأرض ، وإلا هلكوا . ولكن ليس من شك في أن عملهم هنا أشد إرهاقاً لهم وأقل إنتاجاً مما هو لسكان نيويورك . فإذا كان العامل الحر يفقد شيئاً من تفوقه على العبد في الولايات الجنوبية فثم دواع أقل إذن من تلك التي تحمل الناس على إلغاء الرق .

تنمو جميع نباتات أوروبا في الأجزاء الشمالية من الولايات المتحدة . أما الجنوب فعلاته أخرى خاصة به . وقد لاحظ الناس أن تشغيل العبيد طريقة كثيرة التكاليف في زراعة

الحبوب . فالزارع الذى يزرع الغلال فى بلد لا تعرف الرقيق لا يستبقى فى خدمته من العمال عادة سوى عدد قليل ، ويستأجر عدداً إضافياً منهم فى موسمى البذار ، والحصاد ؛ وهؤلاء لا يعيشون عنده ، وعلى نفقته ، سوى مدة قصيرة . أما المزارع فى الولاية التى تستخدم الرقيق ، فمضطرب إلى الاحتفاظ بعدد كبير منهم طول السنة لزرع حقوله وجنى غلاته ، على الرغم من أنه قد لا يحتاج إلى خدماتهم إلا بضعة أسابيع ، لأن العيد لا يستطيعون أن ينتظروا حتى يجدوا من يستأجرهم ويعيشون فى الوقت نفسه بعرق جيئهم ، كما يعيش العمال الأحرار . فللحصول على خدماتهم يجب أن يشتروا شراء . فالرق فضلاً عن مساوئه العامة ، لا يصلح فى بلاد تزرع الحبوب ؛ وعدم صلاحيته فى هذه البلاد أكثر منها فى البلاد الأخرى التى تنتج محصولات من نوع آخر . فزراعة الدخان ، والقطن ولاسيما قصب السكر ، تتطلب من جهة أخرى ، عناية متصلة ، ويستخدم فيها النساء والأطفال ، وإن كانت خدماتهم قليلة الجدوى فى زراعة الغلال . وهكذا يتبين لنا أن الرق أنسب بالبلاد التى تستمد منها هذه الغلات .

فالدخان والقطن وقصب السكر لا تزرع إلا فى الجنوب وحده ، وهى المصادر الأساسية لثروة هذه الولايات . فإذا ما ألغى الرق اضطرب سكان الجنوب إلى أحد أمرين اثنين : إما أن يغيروا نظامهم الزراعى ، وعندئذ يضطرون إلى منافسة سكان الشمال الذين هم أكثر منهم نشاطاً وأوسع خبرة ، وإما أن يستمروا يزرعون نفس الغلات من غير أن يستخدموا العمال العيد ، وعندئذ يكون عليهم أن يتحملوا منافسة الولايات الجنوبية الأخرى التى قد تحتفظ بما لديها من العيد ، وهكذا تكون ثم أسباب خاصة لاستمساك الجنوب بالرق ، وهى أسباب لا تؤثر فى الشمال .

ولكن ثمة سبب آخر أوجه من كل ما ذكرت وأقوى : فقد يستطيع الجنوب أن يلغى الرق ، ولكن ما السبيل إلى تخليص بلاده من سكانها السود ؟ إن الرق والعيد يمكن أن يطردهما من ولايات الشمال بقانون واحد ، ولكن لا أمل فى تحقيق هذه النتيجة المزدوجة فى الجنوب .

وعندما برهنت أن الرق طبيعى فى الجنوب وأنفع فيه ، منه فى الشمال ، أوضحت أن عدد العيد لا بد أن يكون أكبر جداً فيه عنه فى الشمال . فأول ما جرى بالزنج جىء بهم إلى الجنوب ، وإلى الجنوب كانت تستورد دائماً أكبر كمية منهم . وكلما نزلنا جنوباً ازداد التحيز الذى يؤيد الكسل . ففى أقرب الولايات إلى المدارين لا يوجد عامل أبيض واحد ، ومن ثم كان العيد أكثر عدداً فى الجنوب منهم فى الشمال . ويزداد هذا التفاوت فى النسبة ، كل يوم عن سابقه كما أشرنا من قبل ، لأن العيد ينقلون من الجزء الذى ألغى فيه الرق إلى جزء آخر من أجزاء الاتحاد . وهكذا يزايد عدد السكان السود فى الجنوب ، لا من جراء تكاثرهم الطبيعى ، ولكن بسبب هجرة السود الاضطرابية من الشمال

إلى الجنوب . هذا ، وللجنس الأسود أسباب للزيادة في الجنوب شبيهة كل الشبه بالأسباب التي تدعو إلى تزايد الجنس الأوربي في الشمال .

فليس في ولاية (مين) سوى زنجي واحد من كل ثلاثمائة ساكن ، وفي مساتشوستس واحد من كل مائة ، وفي نيويورك اثنين من كل مائة ، وفي بنسلفانيا ثلاثة ، على حين يوجد في ماريلاند أربعة وثلاثون ، وفي فرجينيا اثنان وأربعون . وأخيراً يوجد منهم في كارولينا الجنوبية خمسة وخمسون في كل مائة من السكان . تلك هي نسبة السكان السود إلى البيض في سنة ١٨٤٠ ولكنها في تغير مستمر ، فتناقص باستمرار في الشمال وتزداد في الجنوب .

ولا يخفى أن أقرب ولايات الاتحاد إلى الجنوب لا تستطيع أن تلقى الرق من غير أن تتعرض لأخطار جسام ، ليس لدى الشمال ما يدعوه أن يحشاها إذا هو حرر من عنده من العبيد . فقد سبق أن أشرت إلى الطريقة التي يسرت بها الولايات الشمالية الانتقال من الرق إلى الحرية . وذلك بأن استبقت الجيل الحاضر في أغلاله وحررت ذريته . فهذه الوسيلة صار الزوج لا يندمجون في المجتمع إلا تدريجياً . فعلى حين أن من يحتمل أن يسيئوا استخدام حريتهم قد استبقوا في رقهم ، أما من تحرروا فيستطيعون أن يتعلموا فن أن يكونوا أحراراً قبل أن تصبح أمورهم في أيديهم . ولكن تطبيق هذه الطريقة في الشمال ، دونه مصاعب حمة ، فإعلان أن جميع السود المولودين بعد فترة معينة ، يكونون أحراراً معناه إدخال مبدأ الحرية وفكرتها في صميم الرق . فالسود الذين يقرر القانون استبقاءهم في حالة الرق التي استقد منها أبناءهم يندهشون من مثل هذا المصير المفاتو ، وليست دهشتهم هذه سوى مقدمة تؤدي إلى جزعهم وحقنهم . ومن ذلك الوقت فقد الرق في نظرهم تلك القوة الأدبية التي اكتسبها بمرور الزمن ، وطول العادة ؛ فقد هبط إلى مجرد سوء استخدام محسوس للقوة ، وليس للولايات الشمالية شيء تخشاه من هذه المقابلة ؛ فالسود عندهم قليلو العدد ، على حين أن عدد السكان البيض كبير طاغ . فإن كان فجر الحرية التمثيل ، هذا ، سيؤدي إلى إطلاع مليونين من الناس على وضعهم الحقيقي لكان للظالمين الحق في أن يرتعدوا فرقاً ؛ فالأوروبيون الذين في الولايات الجنوبية سيضطرون بعد أن حرروا أطفال أرقائهم أن يمنحوا هذه النعمة لجميع من عندهم من الزوج .

وقد سبق أن بينت أن هجرة مزدوجة حدثت في الشمال على أثر إلغاء الرق ، أو أنها لتسبق هذا الحادث عندما تكون الظروف موالية لها ، فالعبيد يتركون البلاد ، لينتقلوا جنوباً ، ويسارع البيض من أهالي الشمال ومن أوربا نفسها ، ليحلوا محلهم . ولكن هذين السببين لا يمكن أن يعملوا بطريقة واحدة في الولايات الجنوبية . فعدد الأرقاء ، من جهة ، كبير فيها لدرجة أنه لا يسمح بنقلهم من البلاد ، ومن جهة أخرى فإن الأوروبيين والأمريكيين الإنجليز الذين في الشمال يخشون أن يؤدي بهم الأمر إلى سكنى بلاد لا ينال العمل فيها حقه من التكريم الواجب له ، وزيادة على ذلك فإنهم ينظرون بحق إلى الولايات التي فيها عدد السود يوازي عدد البيض أو يزيد عليها ، على أنها معرضة لأخطار جسام وبذلك فهم يترددون أن يوجهوا نشاطهم هذا الاتجاه .

وهكذا نجد أن سكان الجنوب ، وهم يلقون الرق ، لا يستطيعون أن يدربوا العبيد على أحوال الحرية ، كما يستطيع أهل الشمال تدريبهم عليها تدريجياً . فليس لديهم وسائل لإنقاص عدد الزوج بشكل محسوس ، وسيظلون عاجزين عن أن يمنحوا إسرافهم في التكاثر والازدياد . ففي بضع سنين سيكون ثم شعب كبير من السود في قلب أمة البيض يكاد يكون معادلاً لها .

فسوء استخدام السلطة نفسه هذا الذي يستبقى الرق قائماً يصبح عندئذ مصدر أخطار مفرغة لسكان الجنوب البيض . وأنا لنجد في الوقت الحاضر أن ذراري الأوربيين وحدهم ، هم ملاك الأرض وأسياد مطلقون لكل عمل ، فهم وحدهم يملكون الثروة كما يملكون المعرفة والأسلحة . وهذه المزايا تعزز السود ولكنهم يستطيعون أن يعيشوا بدونها ، لأنهم عبيد . فإن كان العبد حراً ومضطراً أن يعمل لكسب قوته هل يستطيع أن يعيش بدون هذه الأمور ، ويحتمل الحياة ؟ أم لا تنظّل الأدوات نفسها التي أدت إلى سيادة البيض في الوقت الحاضر ، تعرضه مع وجود الرق لآلاف من الأخطار لو أن هذا الرق قد أُلغى ؟

مادام الزنجي عبداً رقيقاً أمكن استبقاؤه في حالة لا تختلف كثيراً عن حالة السوايم . أما إذا ما أعتق وصار حراً فلا يسهه إلا أن يحصل على درجة من التعليم تمكن له من أن يدرك مدى سوء حظه ، ويعمل على أن يجد لها علاجاً ؛ ومع ذلك فثم مبدأ غريب من العدالة النسبية متأصل في النفس البشرية . فالناس يتأثرون تأثراً عميقاً من ذلك التفاوت الذي بين أفراد الطبقة الواحدة أكثر من تأثرهم بما قد يلاحظ من التفاوت الذي بين الطبقات المختلفة . فيستطيع المرء منا أن يفهم الرق ، ولكن كيف يسمح لعدة ملايين من المواطنين أن يعيشوا تحت عبء من العار الأبدي والبؤس المتوارث ؟ ففي الشمال يشعر الزوج الأحرار بهذه المصاعب والمذلات ، ولكن قواهم وأعدادهم قليلة ، على حين أنهم في الجنوب كثيرون وأقوياء .

عندما نسلم بأن البيض والزوج المعقنين يوضعون في الإقليم الواحد في مركز جماعتين أجنبيتين ، أدركنا بسرعة أنه لا يوجد سوى فرصتين للمستقبل . فإما يجب أن ينفصل الزوج عن البيض انفصلاً تاماً ، وإما أن يختلطوا بهم اختلاطاً كبيراً . وقد سبق لي أن عبرت عما أعتقد بشأن الحالة الثانية ، فلا أظن أن الجنسين الأبيض والأسود يمكن أن يعيشا معاً في أي قطر على قدم المساواة . ولكني أعتقد أن الصعوبة في الولايات المتحدة أشد منها في أي قطر آخر . قد يتغلب الفرد المنعزل على التعصب الديني أو الجنسي والقومي ؛ وإن كان هذا الفرد ملكاً فقد يستطيع أن يستحدث في المجتمع تغييرات مدهشة . ولكن شعباً بأسره لا يمكن أن يرتفع على ذات نفسه . فالملك المطلق الذي يستطيع أن يخضع الأمريكيين وعبيدهم السابقين لنير واحد ، قد يتيسر له أن ينجح في مزج الجنسين بعضهما ببعض . ولكن مادامت الديمقراطية الأمريكية على رأس الأحوال فإن

أحداً لن يضطلع بمثل هذه المهمة الشاقة . ولا ضير في أن نتنبأ بأنه كلما ازداد تحرر سكان الولايات المتحدة البيض ، ظلوا أكثر انعزلاً .

سبق أن أشرت إلى أن الجنس الهجين يعد الرابطة الصحيحة للاتحاد بين الأوروبيين والهنود . وكذلك المولدون ، فهم حلقة الاتصال بين البيض والسود . فحيث يكثر المولدون لا يكون الاختلاط بين الجنسين مستحيلاً ، ففي أجزاء من أمريكا نجد الاختلاط بين الزوج والأوروبيين كبيراً ، حتى ليندر أن تصادف رجلاً أسود خالصاً أو أبيض خالص النسب . فعندما يصلون إلى هذه النقطة لا بأس أن يقال في الجنسين أنهما اتحدا ، أو بالأحرى أنهما كونا جنساً ثالثاً متصلاً بكل منهما ، ولكنه ليس واحداً من أيهما .

يعد الإنجليز من بين جميع الأوروبيين أقل شعوب الأرض اختلاطاً بالزوج ، فترى في جنوب الاتحاد هجاء عديدين أكثر مما نجدهم في شماله ، ولكنهم أقل جداً مما في أية مستعمرة أوربية أخرى . وليس الهجاء كثيرين كثرة مطلقة في الولايات المتحدة . فليس لهم قوة خاصة بهم . وعندما تحدث مشاجرات بسبب اختلاف اللون تراهم ينضمون عادة إلى صفوف البيض ، شأنهم في ذلك شأن الخدم الذين يعملون في بيوت العظماء في أوروبا . فهم يتخذون مظهر النبلاء ويقفون موقفهم بإزاء الطبقات التي دونهم .

إن حب التفاخر بالأصل والنسب ، وهو أمر طبيعي في إنجلترا ، قد زادته زيادة كبيرة ، تلك الكبرياء الشخصية التي تخلقها الحرية الديمقراطية في الأمريكيين . فالمواطن الأبيض في الولايات المتحدة فخور بحنسه ، وفخور بذاته . وإن كان البيض والزوج لا يختلطون في شمال الاتحاد ، فكيف باختلاطهم في الجنوب ؟ فهل يتصور أحد لحظة أن أمريكياً من الولايات الجنوبية ، وقد وضع كما لا بد أن يوضع ، بين الرجل الأبيض بكل ما له من تفوق أدنى ومادى ، وبين الزنجي - هل يمكن لهذا الأمريكي أن يفكر في أن يختلط بهذا الأخير (الزنجي) ؟ إن أمريكيي الولايات الجنوبية هم نزعان قويتان لا بد أن تحفظاهم دائماً في عزلة . أولاهما الخوف من أن يندمجوا في الزوج الذين كانوا لهم عبيداً من قبل ، والنزعة الثانية فزعهم من أن يهبطوا إلى مستوى جيرانهم البيض .

فلو أنى أردت أن أتبأ بما عسى أن يكون في المستقبل لقلت إن إلغاء الرق في الجنوب سيؤدي بطبيعة الحال إلى زيادة نفور السكان البيض من السود . ورأى هذا مبنى على ما سبق أن ذكرته في ملاحظة شبيهة لاحظتها في الشمال . فقد ألمعت إلى أن السكان البيض في الشمال يحرصون كل الحرص على تحاشي السود ، كلما أزال التشريع الحواجز التي تحول دون اتصاهما . فما الذي يمنع حدوث النتيجة نفسها في الجنوب ؟ ففي الشمال يمنع البيض من الاختلاط بالسود من أجل خطر موهوم ، أما في الجنوب حيث الخطر حقيقي فلست أستطيع أن أصدق أن الخوف يكون أقل .

فإن سلمنا ، من جهة ، أن السكان الملونين (والحقيقة لانزاع فيها) سيتجمعون

باستمرار في أقصى الجنوب، ويزيدون بسرعة تفوق سرعة تزايد البيض؛ وإن سلمنا كذلك، من جهة أخرى، بأنه من المستحيل أن نتبأ بمجىء وقت يختلط فيه البيض بالسود اختلاطاً كبيراً يسر للسود أن يحصلوا من المجتمع على ذات الفوائد والميزات التي يتمتع بها البيض - أفلا يجب علينا أن نستنتج أن السود والبيض سيقاتلون قتالاً سافراً في الولايات الجنوبية؟ ولكن إن سألنا عما عسى أن تكون نتيجة هذا القتال، أدركنا على الفور أننا هنا لانجد أمامنا غير الحدس الغامض والتخمينات المبهمة. فقد يستطيع العقل البشري أن يرسم دائرة واسعة تشمل المستقبل، ولكن المصادفة هي التي تتحكم في هذه الدائرة، ولا تدع مجالاً للتنبؤ وبعد النظر. ففي كل صورة ترسم للمستقبل نقطة غامضة لا يستطيع العقل أن ينفذ منها، ومع ذلك يبدو محتملاً احتمالاً كبيراً أن مصر البيض في جزائر الهند الغربية أن يخلصوا، وهذا نفسه هو مصر السود في القارة.

ففي جزائر الهند الغربية نجد المزارعين البيض منفصلين وحدهم وسط عدد جم من السكان السود، أما في القارة فالزنج يعيئون بين المحيط وبين شعب لا عدالة له انبسط فوقهم في كتلة متماسكة، من حدود كندا الجليدية إلى تخوم فرجينيا، ومن ضفاف نهر الميسوري إلى شواطئ المحيط الأطلسي. فلو أن مواطني أمريكا الشمالية البيض بقوا متحدين لكان من الصعوبة بمكان أن نعتقد أن الزنج سيفلتون من الهلاك الذي سيهددهم. فلا مناص من أن تقهرهم الحاجة، أو يخضعهم السيف. أما السود الكثيرون العدد المتجمعون على شواطئ خليج المكسيك، فأمامهم فرصة للنجاح إذا ما انحل الاتحاد الأمريكي عندما يبدأ الصراع بين الجنسين الأبيض والأسود. فإن انصمت عروة الرابطة الفدرالية لم يعد سكان الجنوب يستطيعون الاعتماد على المعاونة الدائمة من مواطنيهم الشماليين. فهؤلاء الشماليون واثقون كل الثقة من أن الخطر لا يستطيع أن يمسه، ولولا أنهم ملزمون بأن يبوا لتقديم المساعدة للجنوب إلزاماً إيجابياً لأمكننا أن نقول إن التعاطف العنصري لن يكون عندئذ مجدياً.

ومع ذلك، ففي أي وقت تشتعل الخصومة بينهما نجد البيض الذين في الجنوب سيدخلون، حتى وإن تركوا وشأنهم، حومة النضال، وهم متفوقون تفوقاً عظيماً، من حيث المعرفة ووسائل الحرب. ولكن سيكون السود أصحاب الكثرة العددية، وستكون همة اليأس في صفهم، ولا يخفى أن كليهما مصدر قوة للمحاربين. وسيكون مصر سكان الولايات الجنوبية البيض شبيهاً بمصر العرب في إسبانيا. فبعد أن ظلوا يحتلون البلاد قروناً طويلة فرجما يضطرون إلى أن يعودوا أدراجهم خطوة خطوة حتى يرجعوا إلى البلد الذي جاء منه أجدادهم ويتركوا للسود امتلاك إقليم يبدو أن العناية خصصته لهم. ماداموا سيعيشون فيه ويعملون بأسهل مما يعيش البيض ويعملون.

إن خطر قيام صراع بين السود في الولايات الجنوبية من الاتحاد (وهو خطر،

مهما كان بعيداً، قد يكون محتوماً ولا مناص من وقوعه) يشغل بال الأمريكيين دائماً، ويهددهم بكابوس مزعج. وهو موضوع حديث السكان في الشمال، وإن لم يكن لهم ما يحشونه منه مباشرة. ولكنهم عبثاً ما يحاولون أن يجدوا وسيلة تجنبهم الكوارث التي يجذرونها منها بعد النظر. أما في الولايات الجنوبية فليس ثمة أحد يتناقش في هذا الموضوع، فلا تجد مزارعاً يشير إلى المستقبل، وهو يتحدث إلى الأجانب، ولا تراه يعبر عن مخاوفه لأصدقائه بل يسعى وراء إخفائها حتى عن نفسه. ولكن ثمة شيء يساور أهالي الجنوب أشد رهبة من مخاوف الشمال الصاخبة.

فقد أدى هذا القلق الشامل إلى عمل لا يزال غير معروف حتى الآن، ومع ذلك فمن المحتمل أن يغير مصائر جزء كبير من بني الإنسان. فقد دفع الخوف من المخاطر التي أشرت إليها توأ، بعض المواطنين الأمريكيين إلى تكوين جماعة تهدف إلى تصدير الزوج الأحرار الذين يريدون التخلص من الظلم المسلط عليهم، فتقلهم إلى سواحل غينيا على نفقتها الخاصة.

ففي سنة ١٨٢٠ تكونت هذه الجماعة التي أشرت إليها، واختارت محلة في إفريقيا عند خط عرض ٧ شمالاً، وأطلقت عليها اسم ليبيريا، وتدلنا أحدث الأخبار أن ٢٥٠٠ زنجي قبلوا الذهاب إليها. وأدخلوا النظم الأمريكية الديمقراطية في بلاد كان يسكنها أجدادهم من قبل. ففي ليبيريا الآن حكومة تقوم على أساس النظام النيابي، وبها محلفون من الزوج، وقضاة وقسوس منهم كذلك، وشيدت فيها الكنائس، وأسست الصحف. ومن غرائب القدر أن يحرم على البيض أن يدخلوا ليبيريا هذه!

إن هذا لمن غرائب صروف الزمن حقاً، فقد مضى الآن مائتان من السنين على قيام سكان أوروبا بانتزاع الزنجي من بيته ومن بين أحضان أسرته، لينقلوه إلى شواطئ أمريكا الشمالية، واليوم نجد الأوربيين في أمريكا مشغولين بإعادة سلالات هؤلاء الزوج أنفسهم إلى القارة التي سبق أن انتزعوهم منها انتزاعاً، لقد تعلم الزوج المتوحشون شئون الحضارة وهم في أصفاد الرق، وعرفوا شئون النظم السياسية الحرة، وهم في العبودية. لقد ظلت إفريقيا إلى الوقت الحاضر مغلقة الأبواب في وجه علوم البيض وفنونهم، ولكن مخترعات أوروبا يحتمل أن تدخل هذه الأقاليم، بعد أن عاد إليها الإفريقيون أنفسهم. إن إسكان ليبيريا يقوم على فكرة سامية مثمرة، وأياً كانت نتائجها لإفريقيا فإنها لا يمكن أن تكون علاجاً لمتاعب الدنيا الجديدة.

ففي اثنتي عشرة سنة نقلت «جمعية الاستعمار» ألفين وخمسمائة زنجي إلى إفريقيا، وفي هذه المدة ذاتها ولد في الولايات المتحدة حوالي سبعمائة ألف زنجي. فإن كان في قدرة ليبيريا أن تستقبل الآلاف من السكان الجدد، وكان الزوج في حالة تجعل إرسالهم إليها مفيداً، واستطاع الاتحاد أن يزود الجمعية بإعانات سنوية، وأن ينقل الزوج إلى إفريقيا

على سفن حكومية - إن تم هذا كله ، فإنه مع ذلك لا يستطيع أن يوازن الزيادة الطبيعية التي يزدادها عدد السكان السود . وإذ ليس في استطاعة الاتحاد أن ينقل من أمريكا كل عام عدداً من الناس يعادل من يولد منهم في بلاد الاتحاد كل سنة ، فإن هذا لن يمنع الشر من أن يستشري ، وهو شر يتفاقم فعلاً كل يوم في الولايات هذا ، ولن يغادر الجنس الزنجي شواطئ القارة الأمريكية التي جلبته إليها شهوات الأوربيين وذرائلهم ، وإنه لن يخفى من الدنيا الجديدة مادامت موجودة . نعم قد يستطيع سكان الولايات المتحدة أن يؤجلوا وقوع الكوارث التي يخشونها ولكن لم يعد في طاقتهم الآن أن يقضوا على سببها الفعال .

أراني مضطراً إلى الاعتراف بأنى لأعد إلغاء الرق وسيلة لتفادي الصراع بين البيض والسود في الولايات الجنوبية ، فمن الممكن أن يظل الزنوج أمداً طويلاً في البلاد دون أن يتشكوا . ولكن إن هم رفعوا مرة إلى مستوى الأحرار ، فسرعان ما يتورون من أجل حرمانهم كل حقوقهم المدنية تقريباً . ولما كانوا لا يستطيعون أن يتساووا مع البيض ، فسرعان ما يتخذون إزاءهم موقفاً عدائياً . لقد ساعد كل شيء على تحرير العبيد في الشمال ، وعلى إلغاء الرق من غير أن يترتب عليه جعل الزنوج مصدر فزع مادام عددهم صغيراً لا يمكنهم من أن يحاولوا أبداً المطالبة بما لهم من حقوق . ولكن هذا لا يصدق على الجنوب حيث كانت مسألة الرق مسألة تجارية وصناعية لأصحاب الرقيق في الشمال . أما لأصحابه في الجنوب فهي مسألة حياة أو موت . معاذ الله أن أكون ممن يعملون على تبرير مبدأ استرقاق الزنوج ، مثلما فعل بعض الكتاب الأمريكيين . فكل ما أود أن أقوله هو أن جميع البلاد التي استمسكت من قبل بهذا المبدأ اللعين لا تستطيع كلها أن تتركه في الوقت الحاضر .

ف عندما أفكر في أحوال الجنوب ، لأجد أمامي سوى طريقتين اثنتين للعمل يمكن أن يتبعهما ، كليهما أو إحداهما ، سكان تلك الولايات الجنوبية . فعليهم أن يحرروا العبيد ويختلطوا بهم ، وإلا فليظلوا منعزلين عنهم وليستقوهم في الرق أطول زمن يتيسر لهم أن يقوهم فيه . أما كل حل وسط فيبدو لي أنه سيؤدى - في وقت قريب - إلى حرب من أفظع الحروب الأهلية ، بل ربما أدت إلى إبادة أحد الجنسين . تلك هي وجهة النظر التي يأخذ بها أمريكيو الجنوب إزاء هذه المسألة ، وهم يعملون وفقها باستمرار . ولما كانوا قد أجمعوا أمرهم على ألا يختلطوا بالزنوج ، فإنهم يأبون أن يردوا إليهم حريتهم .

وليس ذلك أن سكان الجنوب يعدون الرق ضرورياً لثروة المزارعين ، فكثيرون من المزارعين يتفقون في هذه النقطة مع مواطنيهم الشماليين ، فهم يتفقون معهم في التسليم بأن الرق مضر بمصالحهم ، ولكنهم مقتنعون بأن إزالة هذا الشر تجعل وجودهم نفسه في خطر . فالتعليم المنتشر الآن في الجنوب أقنع السكان بأن الرق مضر بأصحاب العبيد ، ولكنه

بين لهم كذلك بصورة أوضح من قبل أنه يكاد يكون من المستحيل عليهم أن يتخلصوا منه . ومن ثم نشأ تناقض غريب . فكلما اشتد الجدل حول فائدة الرق عملت القوانين على تثبيت أقدامه وإرساخ قواعده ، فبينما كان مبدأ الرق يلقى تدريجياً في الشمال ، كان هذا المبدأ نفسه يؤدي باستمرار إلى عواقب أشد وأقسى في الجنوب .

أسفرت التشريعات التي وضعتها الولايات الجنوبية في الوقت الحاضر بشأن العبيد عن فظائع لا مثيل لها ، تكفي للتدليل على أن قوانين بنى الإنسان قد انحرفت كل الانحراف ، وإنما لتفصح ذلك الموقف المستئس الذي تفقه الجماعة التي وضعت هذه القوانين والتشريعات . فأمركيكو هذا الجزء من الاتحاد لم يزدوا الرق مصاعب على مصاعبه ، ولكنهم ، على العكس من ذلك ، عملوا على تحسين مركز العبيد وأحوالهم المادية . إن الوسيلة الوحيدة التي اتخذها القدامى للاحتفاظ بالعبيد كانت السلاسل والموت . ولكن الأمريكيين الذين في جنوب الاتحاد قد توصلوا إلى ضمانات عقلية أقوى لاستبقاء سلطاتهم . فقد وجهوا استبدادهم وبطشهم ضد العقل البشري نفسه ، لقد اتخذ القدامى احتياطات لمنع العبيد من تحطيم أغلالهم ، أما اليوم فقد اتخذت الإجراءات لتجريدهم حتى من الرغبة في الحرية . لقد استرق القدامى أجسام العبيد ، ولكنهم لم يفرضوا قيوداً على عقولهم ولا على تعليمهم بل ظلوا يعملون باستمرار وثبات بحسب مبدئهم المقرر . فقد صار معروفاً بينهم أن للرق نهاية طبيعية ، ولا بد للعبد من يوم يعتق فيه ويتحرر فيصبح مساوياً لسيده . أما أمريكيكو الجنوب الذين لا يسلمون أبداً بأن الزنوج يمكن أن يختلطوا بهم ، فقد حرموا عليهم أن يتعلموا القراءة والكتابة ، وإلا تعرضوا لعقوبات صارمة . وإذا كان هؤلاء الأمريكيون يأبون أن يرفعوا العبيد إلى مستواهم هم ، فقد نزلوا بهم إلى أقرب مدى ممكن من مستوى البهائم .

كان الأمل في العتق والحرية مسموحاً به دائماً للرقيق ليهون عليهم ما يلقون من مصاعب ، ولكن أمريكيكو الجنوب يعلمون حق العلم أن التحرير لا يكون إلا خطراً عليهم مادام العبد الحق لا يوضع مع سيده السابق في مستوى واحد . فأعطاء رجل حرته ، واستبقاؤه في البؤس والذلة ، لا يكون إلا إعداداً لزعيم يقوم في المستقبل ويتزعم ثورة العبيد على أسيادهم . وزيادة على ذلك فقد لوحظ من زمن طويل أن وجود زنجي حر يحرك بشكل غامض عقول إخوانه الذين لم يسعدهم الحظ كما أسعده ، ويعطيهم فكرة مبهمة عن حقوقهم ، ومن ثم ظل أمريكيكو الجنوب يجردون مالك العبيد من حقه في تحرير عبيده ، في أكثر الأحوال .

حدث أن قابلت في جنوب الاتحاد شيخاً كان يعاشر إحدى إمانه معاشرة الأزواج واستولدها عدة أطفال . فكأنى بهؤلاء الصبية قد ولدوا عبيداً لأبيهم ، وكان يخطر بباله أن يوصى لهم ، بحريتهم على الأقل . ولكن السنين مرت قبل أن يتمكن من التغلب على ما قام .

في سبيل تحويرهم من عقبات ؛ ودهمته الشيخوخة ؛ واقرب أجله من نهايته ، وجعل يتصور أبناءه يسحبون من سوق إلى سوق ، وينقلون من سلطة أبيهم إلى عصا سيد غريب . وبلغ به الأمر أن أوردته تصوراته المريعة هذه مورد الجنون . فعندما شاهدته كان ضحية اليأس المؤلم ، وعندئذ أدركت فداحة العقاب الذي تنزله الطبيعة بمن ينتهك حرمة قوانينها .

تلك شرور لاشك مستطيرة ، ولكنها النتيجة الضرورية المتوقعة من مبدأ الرق الحديث . فلما اختار الأوربيون عبيدهم من جنس غير جنسهم ، كان معظمهم يعبرون ذلك الجنس دون سائر أجناس البشر الأخرى ، وكانوا يعتقدون أن أية فكرة عن ارتباط وثيق به بالغة الفظاعة . فلا بد أنهم كانوا يعتقدون أن الرق سيظل قائماً إلى الأبد ، مادام لا توجد حالة وسط يمكن أن تكون ثابتة ودائمة ، بين الإفراط في التفاوت الذي يحدثه الاسترقاق ، والمساواة الكاملة التي تنشأ من الاستقلال . هذا ، وقد شعر الأوربيون أنفسهم بهذه الحقيقة بعض الشعور ، ولكنهم أبوا أن يعترفوا بها حتى لأنفسهم ، فكلمنا كان عليهم أن يتصلوا بالعيد ، كانت مصلحتهم الخاصة ، أو كبرياؤهم ، أو شفقتهم هي التي تملي عليهم المسلك الذي يسلكونه إزاءهم . فقد انتهكوا أول الأمر كل حق من حقوق الإنسانية في معاملتهم العيد ، ثم أخبروهم فيما بعد أن هذه الحقوق غالية ومقدسة لا تنتهك حرمتها ، وفتحوا صفوفهم لعبيدهم . ولما حاول هؤلاء العيد أن يلتحقوا بهذه الصفوف فعلاً طردوهم منها شر طردة . وإذ كانوا راغبين في العيد ، فقد تركوا أنفسهم على كره منهم يتأثرون بالحرية والسلطان من غير أن تكون لديهم الشجاعة في أن يكونوا ظالمين كل الظلم عادلين كل العدل .

وإن كان من المستحيل علينا أن نتوقع مجيء فترة يخلط فيها أمريكيو الجنوب دماءهم بدماء الزوج ، فهل يستطيعون أن يجرروا عبيدهم من غير أن يجعلوا سلامتهم هم في خطر ؟ فإن كانوا مضطرين إلى استبقاء هذا الجنس في أسر الرق كي ينقذوا أسرهم هم ، ألا يجوز لنا أن نعذرهم لاستفادتهم من أصلح الوسائل لهذا الغرض ؟ إن الحوادث الجارية في الولايات الجنوبية تبدو لي أفضع نتائج الرق ، وأقربها إلى الطبيعة في وقت واحد . فعندما أرى نظام الطبيعة يعث به ، وأسمع صرخات الإنسانية في نضالها ضد القوانين نضالاً عقيماً لا يجدي ، لا ينصب غضبي على أهل زماننا الذين يعدون أدوات هذه الفظائع ، ولكني أوجه سخطي ولعناتي إلى أولئك الذين أعادوا الرق إلى العالم بعد أن قضى ألف سنة يستمتع بالحرية .

ومهما كانت الجهود التي بذلها أمريكيو الجنوب في سبيل الإبقاء على الرق ، فإن النجاح لن يكون حليفهم دائماً . فقد أصبح الآن محصوراً في بقعة واحدة من بقاع العالم المتحضر . ولما كانت المسيحية قد دمغته بأنه نظام ظالم ، وقرر الاقتصاد أنه مضر ، وتعارضه الآن حريتنا الديمقراطية ، ويأباه الرأي المعاصر - فإنه لن يكتب له البقاء . فإنه سيمنع ،

إما بعمل السادة أو بإرادة العيد ، وفي أى من الحالتين ينتظر أن تترتب عليه كوارث فادحة . فإن أنكرنا الحرية على الزوج ، فقد انتهى بهم الأمر أن يحصلوا عليها بالقوة ، وإن هم منحت لهم ، فلن يمضى عليهم زمن طويل حتى يسيئوا استخدامها .

فرص البقاء أمام الاتحاد الأمريكى والأخطار التى تهدده

لم كانت القوة الغالبة ، فى الولايات ، وليست فى الاتحاد - لايدوم الاتحاد إلا مادامت جميع الولايات راضية بالانضمام إليه - الأسباب التى تؤدى إلى بقاء الولايات متحدة - فائدة الاتحاد فى مقاومة الأعداء الخارجيين وفى استبعاد الأجانب عن أمريكا - ليس بين الولايات المختلفة حواجز طبيعية - ولا مصالح متعارضة تفرق بين بعضها وبعض - المصالح المتبادلة بين الولايات الشمالية والجنوبية والغربية - الأواصر الفكرية فى الاتحاد - وحدة الآراء - الأخطار المحدقة بالاتحاد والناجمة عن أخلاق المواطنين وأهوائهم المختلفة - أخلاق المواطنين الذين فى الجنوب منهم ، والذين فى الشمال - سرعة نمو الاتحاد سبب من أسباب تلك الأخطار الكبرى التى تهدده - تقدم السكان صوب الشمال الغربى - انجذاب القوة إلى هذا الاتجاه نفسه - الأهواء الناجمة عن انقلاب الحظ بغتة - هل تتجه سلطة حكومة الاتحاد الحاضرة إلى الزيادة أم تتجه إلى النقصان - الأمارات المختلفة التى تدل على نقصانها - الإصلاحات الداخلية - الأراضى البور - الهنود - البنك - التعريف - القائد جاكسون .

يتوقف وجود المؤسسات المختلفة الحالية التى فى العديد من الولايات على قيام الاتحاد نفسه ، إلى حد ما . فمن الخير إذن أن نبحث أولاً عما عسى أن يكون مصير هذا الاتحاد المحتمل . ولكن ثم نقطة نستطيع أن نسلم بها على الفور . فلو حدث أن انحل الاتحاد الحالى ، لا يكون فى رأى ، ثمة أى خلاف فى أن الولايات التى يتكون منها هذا الاتحاد الآن ، لن تعود إلى حالتها الأصلية من الانعزال والانفراد بنفسها ، بل يتكون منها اتحادات عدة بدلا من اتحاد واحد .. هذا ، ولست أبغى هنا البحث عن المبادئ التى يحتمل أن تقوم عليها هذه الاتحادات ، بل كل ما أريده لا يعدو بيان الأسباب التى قد تؤدى إلى تفكك الاتحاد الحالى .

وقد يضطرنى هذا الغرض إلى العودة أدراجى بضع خطوات ، إلى موضوعات سبق لى أن طرقتها - هذا ، وليس يفوتنى أن القارىء قد يتهمنى بالتكرار ، ولكن عذرى فيه أن النقاط التى مازالت بحاجة إلى درس ، ذات أهمية بالغة . وخير لى أن أسرف فى القول من أن لا يفهم الناس ما أقول حق الفهم . وإنى لأؤثر أن أؤذى المؤلف على عدم إيفاء الموضوع حقه .

حاول المشترعون الذين وضعوا دستور سنة ١٧٨٩ أن يجعلوا للسلطة الفدرالية ، كياناً منفصلاً ، وقوة عظيمة . ولكنهم كانوا مقيدين بشروط مهمتهم التى اضطلعوا بها .

فهم لم يُعِينوا لتكوين حكومة لشعب مفرد قائم بذاته ، بل لينظموا انضمام عدة ولايات بعضها إلى بعض . فأيا كانت ميولهم ، فلم يكن يسعهم إلا أن يقسموا حق ممارسة السيادة .

وكى نفهم النتائج التي تترتب على هذا التقسيم ، يجب أن نميز بين شتى وظائف الحكومة . فثم أمور قومية بطبيعتها ذاتها ، أى أنها أمور تؤثر في الأمة بأسرها ، ولا يمكن أن يعهد بها إلا إلى الرجل أو الهيئة التي تمثل الأمة جميعها أتم تمثيل . ومن هذه الأمور ، شئون الحرب ، والدبلوماسية . وهناك أمور أخرى إقليمية بطبيعتها ، أى أنها لا تمس إلا أجزاء ومواضع معينة ، ولا يمكن أن تعالج حق المعالجة إلا في هذه الأجزاء والمواضع نفسها . فمن هذه الشئون ميزانية إحدى البلديات مثلاً . وأخيراً ثم شئون ذات طبيعة مختلفة . فهى قومية ، من حيث إنها تمس جميع المواطنين الذين تتكون منهم الأمة ، وهى إقليمية من حيث إنه ليس من الضروري أن تقوم الأمة نفسها بإعدادها وتسيئتها كلها ، ومن هذه الشئون مثلاً : الحقوق التي تنظم أحوال المواطنين المدنية والسياسية . فليس ثمة جماعة يمكن أن تبقى من غير أن يكون لها حقوق مدنية وأخرى سياسية ، ومن ثم كانت هذه الحقوق تهم المواطنين جميعاً على السواء ، ولكن ليس من الضروري دائماً لبقاء الأمة ولازدهارها ، أن تكون جميع هذه الحقوق واحدة مطردة . ولا هى على هذا ، يجب أن تكون مما تقوم به السلطة المركزية .

عندنا إذن نوعان من الشئون التي تشغل بال السلطة السيادية . وهما نوعان يوجدان في كل الجماعات المنظمة تنظيمياً طيباً . أياً كان نظامها السياسى . وبين هذين الطرفين - النوعين - توجد تلك الشئون التي أسميتها مختلطة . وإذ ليست هذه الشئون المختلطة قومية محضة ، ولا هى إقليمية محضة ، فالعناية بها إما أن توكل إلى الحكومة القومية ، أو إلى الحكومة الإقليمية ، بحسب ما يئم الاتفاق عليه بين الطرفين المتعاقدين دون أن يترتب على ذلك أى إضعاف للفرض الذى من أجله قامت الجماعة .

هذا ، وتتكون سلطة السيادة عادة باتحاد الأفراد الذين يتكون منهم الشعب . أما السلطات الفردية ، أو القوى الجماعية التي لا يمثل كل منها سوى كسر أو جزء يسير من السيادة ، فهى العناصر الوحيدة التي تدخل في نطاق الحكومة العامة . وفي هذه الحالة تقوم الحكومة بطبيعة الحال ، لانتظيم تلك الشئون التي تعد قومية فحسب . بل تقوم كذلك بتنظيم معظم تلك الشئون التي سميها مختلطة ، وبذلك تصبح أعمال الحكومة الإقليمية مقصورة على الجزء من السيادة الذى لا بد منه لرخائها وازدهارها .

ولكن قد تكون سلطة السيادة أحياناً من عدد من هيئات سياسية سبق أن نظمت بفضل بعض ظروف سابقة على اتحادها بعضها ببعض . ففي هذه الحالة ، تقوم حكومات الأقاليم أو الولايات بالإشراف على جميع الشئون المختلطة . أو على بعضها ، لاعلى تلك

الشئون التي تتعلق بالولايات وحدها بوجه خاص ، وذلك لأن الأمم الاتحادية التي كانت ذات سيادات مستقلة قبل اتحادها ، والتي مازالت تمثل قسماً غير قليل من السيادة ، قبلت ألا تنزل للحكومة العامة إلا عن ممارسة الحقوق التي لاغنى عنها للاتحاد فقط .

أما إذا خول للحكومة القومية حق تنظيم الشئون المختلطة التي للسيادة ، فضلاً عن الامتيازات الذاتية في طبيعة تلك الحكومة ، فإن نفوذها سيكون لاشك طاعياً ، ولا تكون حقوقها واسعة فحسب ، بل ستكون جميع الحقوق التي ليست لها قائمة برضاها هي ، وعندئذ يخشى أن تجرد الحكومات الإقليمية عما لها من حقوق طبيعية وضرورية .

أما إذا خول للحكومات الإقليمية سلطة تنظيم هذه الأمور المختلطة ، فقد تسود الجماعة نزعة مضادة ، وتكون القوة الغالبة إذن ، في الإقليم وليست في الأمة . ويخشى أن تجرد الحكومة القومية آخر الأمر من تلك الميزات التي لا بد لها منها للمحافظة على كيانها . فللأمم الفردية إذن ميل طبيعي إلى التركيز ، على حين تميل الأمم الاتحادية إلى التفكك .

بقي علينا أن نطبق هذه المبادئ العامة على الاتحاد الأمريكي . احتفظت الولايات المختلفة بالضرورة بحقها في تنظيم جميع الأمور الإقليمية المحضة ، وزيادة على ذلك فقد احتفظت (هذه الولايات نفسها) بحقوقها في تحديد أهلية المواطنين المدنية والسياسية ، وتنظيم العلاقات المتبادلة بين أعضاء الجماعة فيها ، وتوزيع العدالة بالقسط . ولا يخفى أن هذه كلها حقوق ذات صفة عامة بطبيعتها ، وإن لم تخص الحكومة القومية بالضرورة . هذا ، وقد رأينا من قبل ، أن حكومة الاتحاد قد خول لها حق العمل باسم الأمة جمعاء في الأحوال التي ينبغي للدولة أن تبدو فيها على شكل قوة مفردة متحدة غير منقسمة ، كما هي الحال في شئون العلاقات الخارجية مثلاً ، وكذلك عندما تهب لتقاوم عدواً مشتركاً ، مقاومة مشتركة . وجملة القول إنها قد خول لها إدارة تلك الشئون التي أسميناها بالشئون القومية .

ففي تقسيم حقوق السيادة هذا التقسيم ، قد يبدو لأول وهلة أن نصيب الاتحاد أعظم من نصيب الولايات . ولكن مزيداً من إنعام النظر يبين لنا أن الأمر ليس كما وهما . فالأمور التي تضطلع بها حكومة الاتحاد أوسع جداً مما تقوم به الولايات وإن كانت فرص ممارستها أقل . وأما الأمور التي تضطلع بها الولايات فصغيرة نسبياً ، ولكنها ملحة وعاجلة وتستبقى سلطة الولايات حية نشيطة . فحكومة الاتحاد تسهر على المصالح العامة في البلاد ، أما مصالح الشعب ذاته العامة ، فليس لها سوى تأثير مشكوك فيه ، على سعادة الأفراد ، على حين تؤثر مصالح الولاية في سعادة الأفراد هذه تأثيراً مباشراً . فالإتحاد يكفل استقلال الأمة وعظمتها ، وهما أمران لا يؤثران مباشرة في شئون الأفراد ، على حين أن الولايات المختلفة تعمل على صيانة حرية كل مواطن ، وتنظم له حقوقه وتحمي أملاكه ، وتؤمنه على حياته ، وعلى كل سعاده في المستقبل .

فالحكومة الفدرالية بعيدة كل البعد عن رعاياها ، أما حكومات الولايات فعلى مقربة منهم جميعاً ، ومستعدة دائماً لأن تستجيب إلى كل من يلجأ إليها ، حتى في أصغر الأمور شأناً . وأنا لنجد في صف الحكومة المركزية ميول عدد من الرجال الممتازين حقاً ، الذين يطمحون إلى توجيه الحكومة وإدارتها بأنفسهم . أما في صف حكومات الولايات المختلفة فمصالح جميع الرجال العاديين الذين لا يأملون أكثر من الحصول على السلطة في ولايتهم الخاصة - ومع ذلك فسلطاتهم على الشعب أكبر ، لأنهم أدنى إلى أفرادهم وأقرب .

ومن ثم كان للأمريكيين أن يأملوا ، ويخشوا من ناحية الولايات أكثر جداً مما يأملون ويخشون من ناحية الاتحاد . ومن المحتمل ، وبحسب نزعة العقل البشري الفطرية ، أن يتعلقوا كل التعلق بالولاية ، أشد من تعلقهم بالاتحاد ، وعندئذ تنسجم عاداتهم ووجداناتهم مع مصالحهم الشخصية .

فإذا ما قسمت أمة متأسكة سيادتها ، واختارت أن تكون حكومتها حكومة اتحادية ، ظلت تقاليد عاداتها وعرفها في صراع طويل مع القوانين ، وجعلت للحكومة المركزية نفوذاً يجرمه القانون . ولكن ، عندما يتفق عدد من الولايات الاتحادية على تكوين أمة واحدة ، عملت الأسباب نفسها في اتجاه عكسي . ولست أشك في أنه إن أصبحت فرنسا جمهورية متحالفة مثل الولايات المتحدة ، لصارت حكومتها أنشط من حكومة الاتحاد في البداية ، أما إن غير الاتحاد نظامه وصار حكومة ملكية مثل حكومة فرنسا ، ظلت حكومته أضعف من حكومة فرنسا زمناً طويلاً .. فعندما بدأ الأمريكيون الإنجليز يقاومون مستعمرهم مقاومة قومية ، كان قد مضى على وجودهم تحت نير الاستعمار زمن طويل ، وقامت علاقات ضرورية بين البلديات وأفراد المواطنين في كل ولاية ، وكانوا قد ألفوا أن يعتبروا بعض الأمور مشتركة عامة بينهم جميعاً ، وأن يديروا هم أموراً أخرى على اعتبار أنها تنصل بمصالحهم الخاصة بهم وحدهم .

والاتحاد هيئة ضخمة كل الضخامة ، لا تقدم للناس شيئاً معيناً محدوداً يمكن أن يتعلق به شعورهم الوطني . أما نظم الولاية وحدودها فواضحة محصورة ، لأنها تمثل عدداً معيناً من الأغراض الموهودة للمواطنين ، والعزيزة عليهم أجمعين . فالولاية مرتبطة بتربة الأرض ، وبحق الملكية ، وبالعواطف العائلية ، كما ترتبط بذكريات الماضي ، وبالأعمال الحاضرة ، وبالأمال في المستقبل . فالوطنية إذن ، وكثيراً ما تكون أكثر من امتداد لأنانية الفرد وأثرته ، لاتزال موجهة إلى الولاية ، ولم يتسع أفقها بعد حتى تمتد إلى الاتحاد .. وهكذا تتجه مصالح الناس وعاداتهم ومشاعرهم إلى تفضيل تركيز النشاط السياسي في الولاية ، على تركيزه في الاتحاد .

ليس هنا مشقة في تقدير ما لكل من سلطتي الحكومتين ، حكومة الولايات وحكومة الاتحاد ، من قوة ، وذلك بملاحظة الطريقة التي تمارس بها كل حكومة منهما سلطتها الخاصة

فكلما خاطبت حكومة الولاية فرداً أو جماعة من الأفراد ، كانت لغتها واضحة وحاسمة
أمرة . وكذلك تكون لغة الاتحاد عندما يخاطب الأفراد . أما إذا وجهت حكومة الاتحاد
هذا الخطاب إلى ولاية من الولايات ، فإنها تناقش بواعثها ، وتشرحها وتبرر مسلكها ،
وتحاج ، وتنصح . وعلى الجملة ، فهي تحاول كل شيء إلا أن تأمر وتنهى . فإن قامت
شكوك وشبهات بشأن مدى السلطات الدستورية التي لإحدى الحكومتين ، عرضت
حكومة الولاية طلباتها في جرأة ، واتخذت خطوات سريعة قوية لتأييده ، على حين تظل
حكومة الاتحاد تجادل وتلجأ إلى ذكر مصالح الأمة ، وإلى ما لها من فطرة سليمة ، ومن
أعجاد عريضة . فهي تصانع وتفاوض ولا ترضى أن تعمل إلا بعد أن يبلغ الأمر أشده .
حتى لقد يتصور المرء منا لأول وهلة أن حكومة الولايات هي المزودة بسلطة الأمة ، وأن
الكونجرس لا يمثل غير ولاية واحدة فحسب .

فالحكومة الاتحادية إذن ، على الرغم من كل الاحتياطات التي اتخذها مؤسسوها
الأول ، ضعيفة بطبيعة أحوالها كل الضعف ، حتى إنها لتطلب ، أكثر من أية حكومة
أخرى ، أن يوافق عليها المحكومون موافقة حرة ، حتى تستطيع أن تقوم ، وتحافظ على
كيانها . وليس يخفى على أحد أن غرضها الذي ترمى إليه أن تمكن الولايات من أن تحقق في
يسر وسهولة عزمها على أن تظل متحدة . ومادام هذا العزم قائماً فهي حكيمة وقوية
ونشيطة . فالدستور يؤهل الحكومة لأن تهيمن على الأفراد ، وأن تغلب بسهولة على جميع
العقبات التي قد يميلون إلى إقامتها في سبيلها ، ولكنها لم تنشأ بأى حال من الأحوال ، بقصد
مواجهة احتمال أن ولاية أو أكثر من ولاياتها ، قد تحدثها نفسها بالانفصال عن الاتحاد .

فلو حدث أن سيادة الاتحاد اشتمت في صراع مع سيادة الولايات في عصرنا
الحاضر ، فإننا لننذرنا بالهزيمة ونحن موقنون . ولكن ليس من المحتمل أن يتخذ مثل هذا
الصراع مأخذ الجد ، فإن الحكومة الفدرالية ستستسلم كلما وجدت المقاومة التي أمامها
عديدة مستمرة . ولقد دلت الخبرة إلى الآن ، أنه كلما قامت ولاية وطالبت بشيء ما في
مثابرة وعزم ، حالفها النجاح دائماً فتفوز بما طلبت ، وإذا ما رفضت بكل عزم أن تفعل
شيئاً ما ، تركت وشأنها تفعل ما تراه صالحاً وملائماً .

وحتى إن كان لحكومة الاتحاد أية قوة ذاتية فيها نفسها ، فإن موقع البلاد الجغرافي
ليجعل ممارستها هذه القوة أمراً عسيراً كل العسر . فالولايات المتحدة تشغل أقاليم مترامية
الأطراف ، ويفصل ولاياتها المختلفة بعضها عن بعض مسافات شاسعات ، وسكانها
موزعون على بلاد لا يزال بعضها فقراً أو يكاد يكون كذلك . فإن شاء الاتحاد أن يفرض
الولاء نفسه على مختلف الولايات فرضاً بقوة السلاح ، لوضع نفسه في مركز أشبه بما
كانت فيه إنجلترا تجاه قيام أمريكا بشن الحرب عليها من أجل الحصول على الاستقلال .
ومهما بلغت قوة الحكومة ، فإنها لن تستطيع الإفلات في يسر وسهولة من عواقب

مبدأ سلمت به ، على أنه أساس دستورها . فقد تكون الاتحاد برضى الولايات واتفاقها طواعية واختياراً ، وهي باتحادها هذا لم تفقد سيادتها ، ولا هي تحولت به إلى شعب واحد قائم بذاته . فإن شئت إحدى الولايات أن تسحب اسمها من العقد ، كان من الصعب التدليل على عدم حقها في مثل هذا الانسحاب . وليس لدى الحكومة الفدرالية أية وسيلة للتشبيث بمطلبها هذا مباشرة ، لا بالقوة ولا بالحق . وكى تتمكن هذه الحكومة (الفدرالية) من التغلب في يسر على المقاومة التي قد تلقاها من إحدى الولايات الخاضعة لها ، يجب أن يكون لواحدة أو أكثر من هذه الولاية مصلحة خاصة في بقاء الاتحاد ، كما دل على ذلك تاريخ الاتحادات الكونفدرالية في أحوال كثيرة .

فلو فرض أن بعض الولايات المنضمة إلى الاتحاد الفدرالى تستمتع وحدها بأهم مزايا الاتحاد الأساسية ، أو التي تتوقف سعادتها وازدهارها على بقاء هذا الاتحاد ، فلا نزاع في أنها ستكون مستعدة دائماً لتأييد الحكومة المركزية في إجبارها الولايات الأخرى على الطاعة بالقوة . ولكن الحكومة تكون عندئذ قد استخدمت قوة ليست مستمدة من ذاتها نفسها ، بل من مبدأ يتنافى مع طبيعتها . فالدويلات لا تكون اتحاداً إلا لكى تستمد مزايا متساوية من اتحادها هذا ، والحكومة الفدرالية ، في الحالة التي أشرنا إليها توأ ، قد استمدت قوتها من عدم توزيع هذه المزايا والفوائد على الولايات بالتساوى .

فلو حصلت إحدى الولايات المتحالفة على قوة كبيرة تمكنها من الاستيلاء وحدها على السلطة التنفيذية التي للحكومة المركزية ، لاعتبرت الولايات الأخرى مجرد مديريات تابعة لها ، وفرضت عليها ضرورة احترام سلطانها باسم سيادة الاتحاد المستعارة ، وعندئذ يمكن أن تحدث أمور عظام باسم الحكومة الفدرالية ؛ ولكن الحق أن هذه الحكومة تكون قد فقدت كيانها ، ولم يعد لها وجود . ففي هاتين الحالتين كلتئهما ، تزداد السلطة التي تعمل باسم الاتحاد الكونفدرالى قوة ، كلما تركت الحالة الطبيعية التي للاتحادات الكونفدرالية ، ومبادئها المعترف بها .

إن الاتحاد الأمريكى الحالى مفيد لجميع الولايات ، ولكنه مع ذلك ليس مما لاغنى عنه لأية واحدة منهن ، فقد تقطع عدة ولايات روابطها الفدرالية من غير أن تضار سعادة الولايات الأخرى ، ورفاهيتها ، وإن كانت جملة رفاهيتها جميعاً ستكون لاشك قد قلت . فإن كان وجود أية ولاية من الولايات أو سعادتها غير متوقف كل التوقف على الدستور الحالى ، فليس بينها واحدة تميل إلى القيام بتضحيات كثيرة لصيانته والحفاظة عليه . ومن جهة أخرى ، لا يبدو أن هناك أية ولاية من الولايات لاتزال إلى الآن يدفعها طموحها إلى أن تهتم اهتماماً كبيراً بالمحافظة على الاتحاد الحالى . صحيح أن نفوذ هذه الولايات ليس واحداً في المجالس الفدرالية ، ولكن ليس فيها ولاية واحدة تأمل في السيطرة على سائرها ، أو أن تعاملها على أنها دونها ، أو رعية لها .

فعندما يرغب جزء من الاتحاد حق الرغبة في أن يفصل عن الولايات الأخرى ،

يدولى ، أنه لانزاع فى أن هذه الولايات لا تستطيع أن تمنعه ولا حتى أن تحاول ذلك ، وأن هذا الاتحاد الحاضر سيدوم مادامت الولايات راضية بالبقاء أعضاء فيه . فلو سلمنا بهذه النقطة ، هانت المسألة وصارت أقل صعوبة . هذا ، ولسنا نرمى هنا إلى أن نبحت عما إذا كانت ولايات الاتحاد الحاضرة قادرة على الانفصال عنه ، وإنما غرضنا البحث عما إن كانت تؤثر أن تظل مستمكة به .

وبين الأسباب المختلفة التى تؤدى إلى جعل الاتحاد الحاضر نافعا للأمريكيين سببان رئيسيان يتجليان واضحين لكل من يرقب الأمور . فإن صح القول ، وهو صحيح ، أن الأمريكيين هم وحدهم الذين يشغلون القارة ، فإن التجارة تجعل جميع الأمم التى تتجر معهم جيراناً لهم . وعلى الرغم من انعزال الأمريكيين الظاهر -- فإنهم يجب أن يكونوا أقوىاء ، ولا يمكنهم أن يكونوا كذلك ، إلا بأن يظلوا متحدين . فإذا ما انشقت الولايات على الاتحاد أضعفت القوة التى تستمتع بها تجاه الأجانب ، وسرعان ما يخلق الأمريكيون لأنفسهم قوى أجنبية فى عقر دارهم ؛ وسوف يقوم نظام للجمارك الداخلية ، وتفصل الأودية بعضها عن البعض بحدود وهمية ، وتتعلل الملاحة فى مجارى الأنهار ، وتقوم عوائق عديدة تمنع الأمريكيين من حسن الاستفادة من تلك القارة الفسيحة الأرجاء التى وهبتهم العناية الإلهية إياها لتكون أراضى لهم . فليس أمام الأمريكيين الآن أى غزو يهددهم ، ومن ثم فهم ليسوا بحاجة إلى جيوش قائمة ، تكلفهم صيانتها نفقات جساماً ، ولا هم بحاجة إلى فرض ضرائب جدد . أما إذا انحل الاتحاد أصبحت كل هذه الأعباء النقال ضرورية لهم . فالأمريكيون يهتمون إذن كل الاهتمام بصيانة اتحادهم ، والحفاظة على بقائه . ومن جهة أخرى ، فإن استكشاف أية مصلحة شخصية ، يمكن أن تغرى أى جزء من أجزاء الاتحاد بالانفصال عن الولايات الأخرى ، يكاد يكون مستحيلاً .

فإذا ألقينا نظرة على خريطة الولايات المتحدة شاهدنا سلسلة جبال الأليجاني تمتد من الشمال الشرقى إلى الجنوب الغربى ، مارة بنحو ألف ميل من الأراضى ، مما يجعلنا نتصور أن العناية الإلهية قصدت أن تقيم بين وادى المسيسى وشواطئ المحيط الأطلسى حواجز طبيعية تمنع اختلاط الناس بعضهم ببعض ، وتكون الحدود الضرورية التى بين الولايات المختلفة ، ولكن متوسط ارتفاع جبال الأليجاني لا يزيد على ثمانمائة متر ، ومن السهل الوصول من جهات عدة إلى قممها المستديرة وأوديتها الفسيحة المحصورة بين ممراتها . وزيادة على ذلك ، فالأنهار الرئيسية التى تصب فى المحيط الأطلسى مثل المهدسون والصصكيهانا والبوتوماك تتبع كلها من وراء جبال الأليجاني ، من سهل مرتفع مكشوف يطل على وادى المسيسى . وتغادر هذه الأنهار هذا الإقليم وتشق طريقها خلال الحاجز الذى يبدو كأنه يوجهها نحو الغرب ، وهى فى تشبيهاً خلال الجبال تفتح للإنسان طرقاً طبيعية سهلة .

ولا يوجد ثم حاجز طبيعي يفصل الأقاليم التي يقطنها الأمريكيون الإنجليز الآن ؛ فجبال الألبان أبعد من أن تفصل أما بعضها عن بعض ، بل إنها لا يمكن أن تفصل حتى بعض الولايات عن الأخرى . فينيويورك ، وبنسلفانيا وفرجينيا تضم هذه الجبال جميعاً ، وتمتد غرباً بقدر ما تمتد شرقياً .

والإقليم الذي تشغله الآن ولايات الاتحاد الأربع والعشرون ، والأقاليم الثلاثة الكبرى التي لم تصل بعد إلى مرتبة الولايات ، على الرغم من بها من سكان كثيرين ، هذه الأقاليم كلها تبلغ مساحتها ١٣١,١٤٤ فرسخاً مربعاً مما يعادل مساحة فرنسا خمس مرات . وإنا لنجد التربة في نطاق هذه الحدود ، ودرجة الحرارة ، ومنتجات البلاد ، كلها متنوعة كل النوع . والإقليم الفسيح المترامي الأطراف الذي تقطنه الجمهوريات الإنجلوأمريكية جعل الناس يرتابون في إمكان صيانة اتحادهم هذا . وينبغي أن نلاحظ هنا أنه قد تظهر في بعض الأحيان مصالح متضاربة في مختلف المديرات ، التي تتكون منها إمبراطورية واسعة ، وكثيراً ما تنتهي هذه المصالح المتضاربة بانشقاق سافر ، فيكون اتساع البلاد بالغ الضرر ببقاء الدولة وسلامة كيانها . ولكن إن كان السكان في هذه الأقاليم الواسعة متحدين وغير منشقين بعضهم على بعض من جراء تعارض المصالح وتضاربها ، كان اتساع رقعة الإقليم ملائماً لازدهارها ، لأن وحدة الحكومة تعاون على الاستكثار من تبادل المحصولات المختلفة وتزيد في قيمتها بالعمل على تيسير تصريفها وبيعها .

والحق أنه من السهل أن نجد مصالح شتى في مختلف أجزاء الاتحاد ، ولكن لا أعرف أجزاء منه يعادى بعضها بعضاً . فالولايات الجنوبية تكاد تقتصر على الشئون الزراعية ، على حين تشغل الولايات الشمالية بالتجارة والصناعة . أما ولايات الغرب فزراعية وصناعية معاً . وتشمل محاصيل الجنوب الدخان والأرز والقطن والسكر . أما محاصيل الشمال والغرب فتشمل القمح والأذرة . تلك مصادر شتى للثروة ، ولكن الاتحاد هو الوسيلة إلى فتح أبواب هذه المصادر كلها للجميع ، وجعلها نافعة لهم .

ويقوم الشمال بنقل محاصيل الأمريكيين الإنجليز على السفن إلى كل أجزاء العالم ، ويستورد محاصيل بلاد العالم إلى الاتحاد . وظاهر أن هذا الشمال يتم بالمحافظة على قيام الاتحاد بشكله الحاضر ، حتى يظل عدد المنتجين والمستهلكين أكبر عدد ممكن . ولا يخفى أن الشمال أكبر عامل طبيعي في المواصلات بين جنوب الاتحاد وغربه من جهة ، وبين سائر العالم من جهة أخرى . فلا غرو أن اهتم بالاتحاد وبازدهار الجنوب والغرب حتى تظل كلها تزود مصانعه بالمواد الغفل ، وتملاً سفنه بمختلف السلع .

أما الجنوب والغرب فيهتان اهتماماً مباشراً بالمحافظة على كيان الاتحاد وبازدهار الشمال ، إذ لا يخفى أن معظم غلات الجنوب تصدر إلى ما وراء البحار ، ومن ثم كان هو

والغرب بحاجة إلى مصادر الشمال، وبمهما كذلك أن يكون للاتحاد أسطول قوى كى يحميا حماية ناجمة. فليس للجنوب، ولا للغرب أى سفن ولكنهما يعاونان راضين فى نفقات البحرية. فإذا ما حدث وحاصرت أساطيل أوروبا موافى الجنوب ودلتا الميسى، فما عسى أن يكون مصير أرز الكاروليتين (كارولينا الشمالية وكارولينا الجنوبية) وودخان فرجينيا، ومصير السكر والقطن اللذين يزرعان فى وادى الميسى؟ ومن ثم كان الاتحاد يعاون على صيانة المصالح المادية التى تشترك فيها الولايات المتحدة كلها.

وبغض النظر عن هذه الفائدة التجارية، فالجنوب والشرق يستمدان فوائد سياسية جليلة من جراء اتحادهما الواحد بالآخر وبالشمال. هذا، ويضم الجنوب عدداً ضخماً من الرقيق أضحي لكثرتة مخيفاً مفرعاً، وسوف يكون مصدر فزع أشد فى المستقبل. أما ولايات الغرب فتشغل وادياً واحداً فحسب، والأنهار التى تخترق أقاليمها تتبع من جبال روكى أو جبال الأليجاني، وتصب فى نهر الميسى الذى يحمل أموالها إلى خليج المكسيك. وبذا تكون الولايات الغربية مفصولة كل الفصل، بفضل موقعها عن تقاليد أوروبا وحضارة الدنيا القديمة. أما سكان الجنوب فمدفوعون إلى تأييد الاتحاد حتى يستفيدوا من حمايته لهم من السود، وأما سكان الغرب، فكى لا يعزلوا عن الاتصال الحر بسائر أجزاء العالم، ويحصرُوا فى قفار أمريكا الوسطى. ولا يسع الشمال إلا أن يرغب فى الاحتفاظ بالاتحاد الأمريكى، كى يظل كما هو الآن حلقة الاتصال بين هذا الجزء الواسع المتراعى الأطراف وبين سائر أقطار العالم.

وهكذا يتضح لنا أن مصالح جميع أجزاء الاتحاد المادية متصلة بعضها ببعض أوثق اتصال. وهذا الاتصال يصدق كذلك على تلك الآراء والمواقف التى لا بأس من أن نسميا بمصالح الناس غير المادية.

يكثر سكان الولايات المتحدة من التحدث عن شدة تعلقهم ببلادهم، إلا أنى أعترف للقراء بأنى لا أثق بتلك الوطنية التى تحسب لكل شىء حسابه وتقوم على المصلحة الشخصية، والتى قد يقضى عليها أى تغيير يطرأ على هذه المصلحة، ولا أنا أعلق أهمية كبيرة على لغة الأمريكيين عندما يدون فى أحاديثهم القومية، نيتهم فى الاحتفاظ بالنظام الفدرالى (الاتحادى) الذى اختاره أجدادهم. إن الحكومة تستطيع أن تحتفظ بسلطانها قائماً على عدد كبير من المواطنين، برضى الناس الفطرى غير الإرادى إلى حد ما، والناشئ عن تماثل المشاعر وتقارب الآراء أكثر مما تستطيع أن تحتفظ به برضاهم الإرادى القائم على التروى والتفكير. ولست أسلم أبداً بأن الناس يستطيعون أن يكوّنوا مجتمعاً أو هيئة اجتماعية بمجرد أنهم يطيعون رئيساً واحداً، وقوانين واحدة. فالجماعة لا يمكن أن تتكون إلا عندما ينظر عدد كبير من الناس إلى طائفة كبيرة من الأمور من وجهة نظر واحدة، وكذا عندما تكون آراؤهم واحدة فى كثير من الموضوعات، وعندما توحى الأحداث المختلفة إلى عقولهم بنفس الآراء والانطباعات.

وسرعان ما يدرك المراقب الذى يدرس ما يجرى فى الولايات المتحدة، على أساس هذا المبدأ، أن سكانها، وإن انقسموا أربعاً وعشرين دويلة ذات سيادة فما زالوا يكونون شعباً واحداً فحسب. وقد ينساق المراقب إلى إدراك أن الاتحاد الأمريكى الإنجليزى جماعة متحدة حقاً، أكثر من اتحاد بعض أم أوروبا التى تعيش تحت سلطان تشريع واحد وملك واحد.

ومع أنه عند الأمريكين الإنجليز عدد من الطوائف الدينية فظرتهم إلى الدين واحدة؛ ومع أنهم لا يتفقون دائماً على الخطوات التى تؤدى أكثر من غيرها إلى الحكم الرشيد، ويختلفون بشأن بعض أشكال الحكومة التى يحسن الأخذ بها، فهم يجمعون كل الإجماع على المبادئ العامة التى ينبغى أن تسيطر على الجماعة البشرية. فمن ولاية مين شمالاً إلى الفلوريدتين جنوباً، ومن «الميسورى» إلى المحيط الأطلسى، يعد الشعب مصدر كل سلطة شرعية. وهم يأخذون كلهم بنفس الأفكار التى تتصل بالحرية والمساواة، وحرية الصحافة وحق عقد الاجتماعات، ونظام الخلفين، ومسئولية الموظفين الحكوميين.

فإذا ما انتقلنا من آرائهم الدينية والسياسية إلى المبادئ الأخلاقية والفلسفية التى تنظم شؤونهم فى الحياة اليومية العادية وتحكم سلوكهم، وجدنا فيها كذلك نفس الوحدة والاطراد. فالأمريكيون الإنجليز يعترفون بما لعقل الجماعة من سلطان أدبى، كما يعترفون بما للمواطنين فى مجلتهم من السلطة السياسية، ويؤمنون بأن الرأى العام خير حكم بين ما هو مشروع وقانونى، وبين ما هو محرم وممنوع، بين الحق والباطل. وتعتقد الكثرة منهم أن الإنسان إذا سار وراء ما تقتضيه مصلحته الشخصية، وفهم هذه المصلحة على وجهها الصحيح، فإنه سيعمل العدل والصالح. ويعتقدون أن كل إنسان ولد وله الحق فى أن يحكم نفسه بنفسه، وليس لأحد الحق فى أن يضغط على بنى جنسه ويجبرهم أن يكونوا سعداء. وكلهم يؤمن كل الإيمان بقابلية الإنسان للكمال، ويعرفون أن نشر التعليم أمر لا يمكن أن يكون إلا نافعاً بالضرورة، وأن عواقب الجهل وخيمة. ويعدون المجتمع هيئة فى حالة تحسن وتقدم، والبشرية منظرًا متغيراً ليس فيه شيء ثابت دائم، وهو ما يجب أن يكون، ويسلمون بأن ما يبدو لهم اليوم صالحاً، قد يحل محله ما هو خير منه فى الغد. هذا، ولست أذكر كل هذه الآراء على أنها حق كلها وإنما أذكرها على أنها آراء أمريكية ليس إلا.

لم توحد هذه الآراء المشتركة الأمريكين الإنجليز وترابطهم بعضهم ببعض فحسب، ولكنهم يفترون عن سائر الأمم بما يشعرون به من كبرياء. ففي الخمسين سنة الأخيرة لم يدخر أى جهد فى إقناع سكان الولايات المتحدة بأنهم الشعب الوحيد المتدين المستير الحر. فهم يعلمون أن مؤسساتهم الديمقراطية تزدهر، على حين تفشل مؤسسات غيرهم. فلا غرو إن كانوا يرون رأياً سامياً فى تفوقهم هذا، ولا يعد أن يشعروا بأنهم نوع مختلف متمايز عن سائر البشر.

وهكذا، ليست الأخطار التي تهدد الاتحاد الأمريكي مما ينشأ عن تنوع المصالح أو الآراء، بل تنشأ عن اختلاف شخصية الأمريكيين وتباين أهوائهم. فسكان أقاليم الولايات المتحدة المترامية الأطراف يكادون أن يكونوا جميعاً من أصل واحد ولكن المناخ، وبخاصة الرق، قد أوجد فيهم فروقاً بارزة بين المستوطن البريطانى القاطن فى الولايات الجنوبية، وزميله فى الولايات الشمالية. ويعتقد الأوربيون أن الرق قد جعل مصالح جزء من «الاتحاد» ضد مصالح الأجزاء الأخرى منه، ولكنى لم أجد الحالة على هذه الصورة. فالرق لم يخلق فى الجنوب مصالح تتعارض مع مصالح أهل الشمال، ولكنه أثر فى أخلاق أهالى الجنوب وغير من عاداتهم.

سبق أن بينت ما للرق من تأثير فى قدرة أمريكى الجنوب التجارية، وقد امتد هذا التأثير نفسه إلى آدابهم فى السلوك. فالعبد خادم لا يحتج أبداً على سيده ولا يعارضه فى شيء، ويدعن لكل مطالبه منه دون أن يشكو. إنه قد يغدر بسيده فى بعض الأحيان فيغتاله، ولكنه لا يقاومه أبداً. وفى الجنوب أسرات يبلغ بها الفقر مبلغاً لا يمكنها معه أن تقتنى أحداً من الرقيق. فالمواطن فى ولايات الجنوب يتقلب منذ طفولته حاكماً بأمره فى المنزل، فإنه قد ولد هنا ليأمر وينهى؛ وتلك هى أول فكرة تستقر فى ذهنه، كما أن أول عادة تنفرس فيه أنه يحكم من غير أن يجد لحكمه مرداً. ففريته تفيض عليه سمات الرجل الصلف المتسرع الحاد الطبع العنيف، المتحمس لرغباته وشهوته، الذى لا يصبر على ما يعترض سبيله من عقبات وعراقيل، ولكن همته سرعان ما تنضب إن لم يوفق فى أول محاولة من محاولاته للتغلب على ما يصادفه فى سبيله من عقبات.

أما الأمريكى الذى يعيش فى الشمال، فلا يرى منذ صباه أحداً من العبيد حوله، بل ولا يقوم على خدمته أحد من الخدم الأحرار. لأنه مضطر عادة إلى أن يؤدى حاجاته بنفسه. فمنذ يحل هذا العالم يجد فكرة الضرورة تواجهه من كل جانب، وسرعان ما يدرك مدى قدراته الطبيعية ويعرفها حق المعرفة؛ فلا يخطر بباله أبداً أن يخضع بالقوة كل من يقف فى سبيله، ويعلم أن خير وسيلة للحصول على مساعدة بنى وطنه أن يكسب رضاهم. فلا غرو أن أضحى صبوراً متروياً، سمحاً، لا يندفع فيما يعمل، ولكنه يثابر، ويدأب على تحقيق أهدافه.

إن حاجيات الحياة الملحة الضرورية موفورة دائماً فى الولايات الجنوبية فلا حاجة بالسكان إلى أن يشغلوا بالهم بهوم الحياة المادية، فقد أعفاهم منها سواهم، فلا عجب إذن أن اتجه خيالهم إلى أغراض أخرى أكثر استرخاء للنفس وأقل تحديداً. فالأمريكى القاطن فى الجنوب مغرم بالعظمة، والترف، والشهرة والمرح، وانتهاج اللذات، ولا سيما بالكسل. فليس ثمة شيء يحمله على بذل أى جهد فى سبيل كسب رزقه، وإذا ليس له مشاغل ضرورية تشغله، فقد استسلم للكسل، ولم يحاول أن يضطلع بعمل شيء نافع.

هذا، والمساواة في الحظوظ، وعدم وجود الرق في الشمال تدفعان السكان إلى الانهماك في الشئون المادية التي يستين بها سكان الجنوب البيض ويزدرونها . فقد تعلم سكان الشمال هؤلاء منذ نعومة أظفارهم أن يكافحوا ضد العوز والحاجة، وأن يضعوا الثروة فوق كل الملدات العقلية أو القلبية ، فتفاصيل الحياة التواقة قد ثلثت حدة خيالهم ، فما لديهم من الآراء، أقل مما لدى سكان الجنوب عدداً، وعمومية، ولكنها آراء عملية أكثر، ويغلب عليها الوضوح والدقة . ولما كان رغد العيش هدف كل مجهود ، فقد توافر لهم الرخاء كل التوافر، فاستغلوا الطبيعة والإنسان خير استغلال من الوجهة المالية، ووجهت الجماعة كلها بمهارة إلى التعاون على إسعاد كل عضو من أعضائها وتوفير الرخاء له، على حين كانت أثرة الفرد مصدر السعادة العامة للجميع .

فليس لدى الأمريكي الذي يعيش في الشمال خبرة فحسب، بل لديه كذلك العلم والمعرفة، ومع ذلك فهو لا يقدر العلم من حيث هو متعة وتسلية، بل يقدره من حيث هو وسيلة ليس إلا، فتراه يحرص كل الحرص على أن يلم بما له من تطبيقات نافعة . وأما في الجنوب فالأمريكي يميل إلى أن يعمل في تهور واندفاع، وهو أمهر من زميله وأصرح منه وأكرم، وأكثر إقبالاً على الأمور العقلية، فضلاً عن أن ذهنه أكثر توقداً . فمع أن الأول يستمتع بدرجة عظيمة من حيث النشاط وسلامة الذوق، وسعة المعلومات، والمقدرة العامة، فإن به الصفات الطيبة والسيئة، التي يتسم بها أفراد الطبقة الوسطى من الناس، على حين أن لدى الثاني ما لدى كل الأرستقراطية، من أذواق وميول، وضروب التعصب، ونقاط الضعف وسعة العقل .

فإذا انضم اثنان إلى جماعة ما، وكان لهما إلى حد ما نفس المصالح ونفس الآراء ولكنهما يختلفان خلقاً ومعلومات، وحضارة، فمن المحتمل كل الاحتمال ألا يتفقا؛ إن هذه الملاحظة لتصدق كذلك على كل جماعة من الأمم .

فالرق لا يهاجم الاتحاد الأمريكي إذن مباشرة في مصالحه، بل يهاجمه في آدابه وأخلاقه بطرق غير مباشرة .

كان عدد الولايات التي وافقت على مبدأ «الاتحاد الفدرالي» في سنة ١٧٩٠ ثلاث عشرة ولاية، أما الآن فيتكون الاتحاد من أربع وعشرين ولاية، وازداد عدد السكان أربعة ملايين سنة ١٧٩٠^(١) أكثر من ثلاثة أضعاف في مدى أربعين عاماً، فقد بلغ في سنة ١٨٣٠ ثلاثة عشر مليوناً على وجه التقريب، فالتغيرات العظيمة التي من هذا القبيل تم عن غير خطر .

(١) كان عدد سكان الولايات المتحدة الثلاث عشرة هذه في سنة ١٧٩٠ هو ٣ ٩٢٩ ٢٣٨ وكان عددهم بحسب إحصاء سنة ١٨٣٠ هو ١٢ ٨٥٠ ١٠٥ أما عددهم الآن بحسب إحصاء سنة ١٩٦٠ فقد بلغ ١٧٥ ٣٢٣ ١٧٩ وأما عدد الولايات فقد بلغ الخمسين ولاية .

إن للجماعة المؤلفة من دويلات عدة، مثل ما للجماعة المؤلفة من أفراد، ثلاث فرص للبقاء والاستمرار: حكمة أعضائها، وضعف أفرادها، وعددها المحدود؛ فالأمريكيون الذين يغادرون شواطئ المحيط الأطلسي ليتوغلوا في مجاهل الغرب لا يعدون أن يكونوا مغامرين لا يستطيعون الصبر على أى قيد، وهم نهمون كل النهم من حيث الثروة والمال، وكثيراً ما يكونون ممن طردوا من الولايات التي ولدوا فيها ونشأوا. فعندما يصلون إلى البرارى لا يكون أحد منهم يعرف الآخر، فلا تقاليد لهم، ولا أى شعور بروابط الأسرة، ولا قوة الأسوة الحسنة يمكن أن تحد من إسرافهم؛ سلطان القوانين عليهم ضعيف، وأضعف منه سلطان الآداب العامة. فالمستوطنون الذين يفدون على وادى المسيسيبي باستمرار هم إذن، من كل وجه من الوجوه، دون أولئك الأمريكيين الذين استوطنوا أجزاء الاتحاد الأخرى. ومع ذلك فلهم نفوذ كبير في مجالس الاتحاد، وقد يبلغون إلى تولى رئاسة الحكومة في الجمهورية قبل أن يعرفوا كيف يحكمون أنفسهم.

وكلما زاد ضعف أفراد الأطراف المتعاقدة، ازدادت فرص الاتحاد في البقاء؛ لأن سلامة هذه الأطراف تتوقف عندئذ على اتحادها. ففي سنة ١٧٩٠ عندما كانت أكثر الجمهوريات الأمريكية ازدحاماً بالسكان لا تشتمل على أكثر من خمسمائة ألف نسمة كانت كل واحدة منهن تشعر بضآلتها من حيث هي أمة مستقلة، وكان هذا الشعور يجعل الاتفاق مع السلطة الفدرالية ميسوراً. ولكن عندما يزداد عدد السكان في إحدى الولايات ليبلغ المليونين مثلاً، كما بلغ في ولاية نيويورك التي تبلغ مساحتها ما يعادل ربع مساحة فرنسا ذاتها، تشعر هذه الولاية بقوتها إذن، وإن ظلت تؤيد الاتحاد على اعتبار أنه مفيد، ولازدهارها، وإن لم يعد أمراً ضرورياً لوجودها. وهي مع قبولها بأن تظل عضواً فيه، ترمى إلى أن تكون لها الغلبة في المجالس الفدرالية والسيطرة عليها. فمجرد ازدياد الولايات من حيث عدد سكانها يضعف الأواصر التي تربطها بعضها ببعض. فكل الناس الذين وضعوا في وجهة نظر واحدة لا يمكن أن ينظروا إلى الأشياء عينها بطريقة واحدة، فما بالك بهم إن كانت وجهة النظر مختلفة؟ لاشك في أن وجهات نظرهم تزداد اختلافاً. فكلما ازداد عدد الجمهوريات الأمريكية قلت إذن الفرص التي أمامها للإجماع في الشئون التشريعية. أما في الوقت الحاضر (أى في العشرة الرابعة من القرن الماضى) فإن مصالح أجزاء الاتحاد المختلفة ليست بالتباينة في نظرنا. ولكن من ذا الذى يستطيع أن يرى بثاقب نظره البعيد تلك التغيرات النوعية التي قد تتم في المستقبل في بلاد تنشأ فيها مدن جديدة كل يوم، وتتكون ولايات جديدة في كل سنة تقريباً؟

فمنذ نزول الإنجليز المستعمرين لأول مرة، كان عدد السكان يزداد نحو الضعف كل اثنتين وعشرين سنة. ولست أعرف أسباباً ما ترجح وقوف نسبة ازدياد عدد السكان من الأمريكيين الإنجليز هذه، في المائة السنة المقبلة. وفي اعتقادى أنه قبل أن يمضى هذا

الوقت سيبلغ عدد السكان في أقاليم الولايات المتحدة .. والدويلات التي تتبعها أكثر من مائة مليون نسمة موزعين على أربعين ولاية . ولا يسعني إلا أن أسلم بأن مصالح هذه المائة مليون من الناس ليست متعارضة ، بل أرى أنهم ، على العكس من ذلك ، يتساوون في الاهتمام ببقاء الوحدة قائمة بينهم . ومع ذلك فلازلت أقول إنهم ، بسبب أنهم مائة مليون إنسان ، يكونون أربعين أمة متمايزة تتفاوت في القوة ، فإن استمرار الحكومة الفدرالية لا يمكن أن يكون إلا حادثاً سعيداً .

ومهما كان إيماني بقبالية الإنسان للكمال عظيماً ، فإني لا أزال أرفض أن أعتمد بدوام حكومة يطلب منها أن توحد أربعين أمة مختلفة ، ومنتشرة في إقليم واسع مساحته مساحة نصف أوربا ، وأن تتحاشى كل منافسة وطموح وصراع فيما بينها ، وتوجه نشاطها في المستقبل نحو تحقيق أغراض واحدة بعينها - اللهم إلا إذا تبدلت الطبائع وتغير الناس تغيراً شاملاً .

ولكن أكبر خطر يتعرض له اتحاد الولايات المتحدة ، من جراء تزايد وتوسعه إنما ينشأ من تنقل قواه الداخلية المستمر وتغيرها . فالمسافة بين بحيرة سوبورور وخليج المكسيك تزيد على ألف ومائتي ميل ، في اتجاه مستقيم ، وتنشئ حدود الولايات المتحدة على امتداد هذا الخط الهائل كله ، فتقع تارة في نطاق هذا الخط وتارات كثيرة وراءه مسافات شاسعة في البراري والقفار . وقد حسب الحاسبون أن اليض كانوا يتقدمون كل سنة سبعة عشر ميلاً على طول هذه الحدود الهائلة ، وكانوا يواجهون في تقدمهم ، من حين إلى حين عقبات تعطلهم مثل إقليم صحراوي جذب ، أو بحيرة ، أو شعب من شعوب الهنود الحمر . وعندئذ يضطرون إلى التوقف برهة من الزمان . ويتقوس طرفاً هذا الطابور ، المتقدم وينحنيان حول نفسيهما . وحالما يلتقيان يعود الطابور ، ويتجه في سيره إلى الأمام . فتقدم الجنس الأوربي التدريجي المستمر هذا نحو جبال روكي يشبه حدثاً من تلك الأحداث المشمولة بالعاية الإلهية . فهو أشبه بطوفان من الناس يظل يعلو باستمرار ، وتدفعه يد الله إلى الأمام باستمرار .

ف وراء هذه الطلائع الأمامية من المستوطنين الفاتحين شيدت مدن ، وأقيمت ولايات مترامية الأطراف . ولم يكن بها في سنة ١٧٩٠ غير بضعة آلاف من الرواد مبعثرين في أودية المسيسي ، أما اليوم فإن هذه الأودية نفسها تشمل من السكان ما كان يشملهم الاتحاد كله في سنة ١٧٩٠ ، ويبلغ عددهم قرابة الأربعة ملايين . فقد تأسست مدينة واشنطن سنة ١٨٠٠ وسط الاتحاد نفسه ؛ ولكن ما حدث من التفجرات الكبيرة في هذه المدينة جعلها تقع الآن في طرف من أطراف الاتحاد البعيدة . فكى يأخذ نواب الولايات الغربية البعيدة أماكنهم في الكونغرس يضطرون إلى قطع مسافة طويلة تقرب من المسافة التي بين باريس وفيينا .

وتدفع ولايات الاتحاد كلها في الوقت نفسه نحو الازدهار والرخاء ولكن لا يتيسر لها جميعاً أن تنمو وتزدهر بسرعة واحدة . ففي شمال الاتحاد تمتد السلاسل المتفرعة من سلسلة جبال الأليجاني منفصلة بعضها عن بعض حتى تصل إلى المحيط الأطلسي ، وتكون طرقاً فسيحة ، ومرافئ كبيرة مهيأة لاستقبال أكبر السفن حجماً . ولكننا نجد الساحل الممتد من نهر البوتوماك بمحذاء الشاطئ حتى مصب نهر المسيسيبي ، رملياً ومنبسطاً . ففي معظم مصبات الأنهار التي في هذا الجزء من الاتحاد عوائق تعطل الملاحة فيها ، وليست الموانئ القليلة التي بين تلك الخلجان الصغار ، ذات عمق واحد ، وما تقدمه من تسهيلات للتجارة ، أقل بكثير مما تقدمه موانئ الشمال .

إن أول سبب من أسباب القصور ، وهو سبب طبيعي ، يتصل بسبب آخر ، ينشأ عن القوانين . فقد رأينا أن الرق الذي قد ألغى في الشمال ، لا يزال قائماً في الجنوب . وسبق أن أشرنا إلى ماله من عواقب وخيمة تهدد نجاح المزارع نفسه ، صاحب الأرض والريعي .

يتفوق الشمال إذن على الجنوب في التجارة والصناعة كليهما ، وكانت نتيجة هذا التفوق الطبيعية سرعة ازدياد عدد السكان ، وتزايد الثروات في نطاق حدوده . فقد أصبحت الولايات التي على شواطئ المحيط الأطلسي فعلاً نصف أم ، ومعظم الأراضي يملكها أصحابها ، فلم يعد في وسعها إذن أن تستقبل عدداً كبيراً من المهجرين ، كما تستقبلهم الولايات الغربية ، حيث لا يزال المجال متسعاً اتساعاً كبيراً لجهود الإنسان . فوادي المسيسيبي أكثر خصباً من شواطئ المحيط الأطلسي . فهذا السبب ، بالإضافة إلى غيره من الأسباب الأخرى ، يساعد على دفع الأوربيين نحو الغرب ؛ وهذه حقيقة يمكن التدليل عليها بقوة الأرقام . فقد تبين أن مجموع سكان الولايات المتحدة قد زاد ثلاثة أضعاف في مدى أربعين عاماً ، على حين أن عدد سكان الولايات المجاورة « لوادي المسيسيبي » ، قد ازداد إحدى وثلاثين مرة في مدى الأربعين سنة نفسها .

لقد ظل مركز القوة الفدرالية يتغير باستمرار . فمنذ أربعين سنة كانت أغلبية المواطنين في الولايات المتحدة قد استقرت على شواطئ المحيط حوالي البقعة التي تقوم فيها مدينة واشنطن الآن . أما اليوم فمعظم الشعب يتجه إلى داخل البلاد ، ونحو الشمال . ولن تمضي عشرون سنة حتى يكون أكثرهم قد استقروا وراء جبال الأليجاني وفي غربها . وإن ظل الاتحاد قائماً ، فلا يخفى أن حوض نهر المسيسيبي المعروف لخصوبة تربته واتساع رقعته ؛ سيكون المركز الدائم للحكومة الفدرالية . ففي ثلاثين سنة أو أربعين سيأخذ هذا الجزء من البلاد مركزه الطبيعي ، ومن السهل أن نقول أن نسبة عدد سكانه إذا قورن بعدد سكان شواطئ المحيط الأطلسي ستكون كنسبة ٤٠ - ١١ في الجملة . وفي بضع سنوات ستفقد الولايات التي أنشأت الاتحاد ، القدرة على توجيه سياسته وإدارته ، وسيسود سكان وادي المسيسيبي المجالس الفدرالية .

إن انجذاب القوة الفدرالية وتكاثرها نحو الشمال الغربي باستمرار يتجلى في إحصاء عدد السكان العام الذي يعمل كل عشر سنوات ويتحدد فيه من جديد عدد النواب الذين ترسلهم كل ولاية إلى الكونغرس. ففي سنة ١٧٩٠ كان عدد نواب فرجينيا في الكونغرس تسعة عشر نائباً، وظل هذا العدد يزداد حتى بلغ سنة ١٨١٣ الثلاثة والعشرين، ثم منذ هذا الوقت أخذ يتناقص. ففي سنة ١٨٣٣ لم تنتخب فرجينيا سوى واحد وعشرين نائباً. وفي الفترة عينها سارت نيويورك في اتجاه عكس هذا الاتجاه، فقد كان لها عشرة نواب سنة ١٧٩٠، أما في سنة ١٨١٣ فقد بلغ عددهم سبعة وعشرين، ثم أربعة وثلاثين في سنة ١٨٢٣، وأربعين في سنة ١٨٣٣، على حين كان لولاية أوهايو ممثل واحد في سنة ١٨٠٣ ولم تأت سنة ١٨٣٣ حتى بلغ عدد ممثليها تسعة عشر عضواً.

من الصعب أن يتصور المرء أمة غنية وقوية تتحد اتحاداً باقياً مع أخرى فقيرة وضعيفة، حتى ولو ثبت أن قوة الأولى وثروتها ليستا السبب في ضعف الأخرى وفقرها. ولكن صيانة الاتحاد هذا تصبح مع ذلك أشق عندما تكون قوة أحد الطرفين آخذة في التناقص وقوة الطرف الآخر في الازدياد. فهذه الزيادة السريعة غير المتناسبة التي حدثت في بعض الولايات تهدد استقلال البعض الآن. فقد تنجح نيويورك بمن فيها من المليون ساكن، وبالأربعين نائباً الذين يمثلونها، في أن تملئ إرادتها على الولايات الأخرى في الكونغرس؛ وحتى إن لم تحاول الولايات القوية أن تضغط على الولايات الصغيرة لظلم الخطر مع ذلك قائماً، إذ يوجد في إمكان الفعل، بقدر ما يوجد في الفعل نفسه. فالضعيف لا يتق دائماً بعدالة القوى ولا بحججه. أما الولايات التي لا تزداد بمثل السرعة التي يزداد بها غيرها فتتظر إلى الولايات المحظوظة بعين الريبة والحسد. فلا غرو أن حدث في النفوس قلق عميق وتيهج غامض، وكلاهما ملحوظ في الجنوب، وهو نقيض بارز كل البروز للثقة والازدهار اللذين في أجزاء الاتحاد الأخرى. وأظن أن الموقف العدائي الذي وقفه الجنوب حديثاً لا يعزى إلى سبب غير هذا السبب. فسكان الولايات الجنوبية هم دون سائر الأمريكيين، أكثر الناس اهتماماً بصيانة الاتحاد. فلا شك في أنهم سيعانون أكثر من سواهم إذا ما تركوا وشأنهم. ومع ذلك فإن الولايات الجنوبية هذه هي التي تهدد بفصم عرى الاتحاد. وليس يعز على أحد أن يدرك أن الجنوب الذي أعطى الاتحاد أربعة رؤساء للجمهورية، والذي يرى أنه آخذ في فقدان نفوذه في الاتحاد، وأن عدد ممثليه في الكونغرس يتناقص سنة بعد أخرى، على حين يزداد عدد ممثل الولايات الشمالية والغربية. فالجنوب المتلىء بالسكان الحادى الطبع، السريع الغضب، يزداد كل يوم حقاً وفزعاً. فسكانه يفكرون في موقفهم الحاضر، ويتذكرون ما كان لهم من ماض، بشيء من القلق السوداوى الذي يشعر به الناس الذين يشتهون في وجود ظلم وتعسف، فإن هم رأوا أن قانوناً من قوانين الاتحاد جاء صراحة في غير مصلحتهم احتجوا عليه وقالوا عنه إنه جاء من نتائج سوء استخدام السلطة، وإن لم تصادف احتجاجاتهم الشديدة آذاناً مصغية لحووا بالانفصال عن مجتمع يرهقهم بالتكاليف والأعباء، ويحرمهم الاستمتاع

بالمنافع . قال سكان ولاية كارولينا في عام ١٨٣٢ « إن التعريفة تدر الثراء على الشمال ، على حين أنها تجر الخراب على الجنوب . فإن لم يكن هذا صحيحاً فاللام نعزو تزايد قوة الشمال وثروته باستمرار ، على ما في جوه من قسوة ، وفي تربة بلاده من قحولة ، على حين أن الجنوب الذي يوصف بأنه جنة أمريكا يتدهور بسرعة . »

فلو أن التغييرات التي وصفناها حدثت تدريجياً ، حتى صار كل جيل على الأقل ، يجد الوقت الكافي ليختفى فيه مع نظام الأشياء وأوضاعها التي أُلّف أن يعيش فيها ، لكان الخطر أقل وأهون . ولكن المجتمع يتقدم في أمريكا بسرعة مذهلة حتى يكاد تقدمه هذا يكون ثورة وانقلاباً . فقد يعيش المواطن منهم حتى يرى ولايته قد تبوأَت مركز الصدارة في الاتحاد ، ثم إذا بها انقلبت ضعيفة لاحول لها ولا قوة في المجالس الفدرالية . وقد عرف أن جمهورية أمريكية إنجليزية قد نمت بسرعة كما ينمو الطفل فمرت من الميلاد إلى الطفولة فالنضج في مدى ثلاثين عاماً . ومع ذلك فيجب ألا يتوهم أحد أن الولايات التي تفقد سيطرتها في المجالس تفقد كذلك سكانها وثروتها ، فليس ثم حد يفرض على ازدهار الولاية ورخائها ، بل إنهما ليزدادان فيها بأسرع مما يزدادان في أية مملكة أوروبية . ولكن الناس فيها يظنون أنهم قد افتقروا لأن ثروتهم لا تنمي بالسرعة نفسها التي تنمي بها ثروات جيرانهم ، ويتوهمون أن قوتهم قد زالت عنهم لأنهم أصبحوا فجأة على اتصال بقوة أعظم من قوتهم . وهكذا يتبين أنهم إنما قد أودوا في شعورهم وفي أهوائهم لا في مصالحهم ، ولكن في هذا ما يكفي لتعريض صيانة الاتحاد للخطر ؛ فلو أن الملوك والشعوب جعلت تعنى منذ بداية العالم برعاية مصالحها وحدها لما كان ثمة مجال لقيام الحروب بين بنى الإنسان .

فلاغرو أن كان ازدهار الأحوال في الولايات المتحدة مصدر أشد الأخطار التي تهددها ، لأنه قد يخلق في بعض الولايات الأعضاء في الاتحاد شيئاً من تلك النشوة التي تصحب كل زيادة في الحظ والثروة تأتي فجأة وعلى غير انتظار ، كما أنه قد يستثير في أخرى انفعالات الحسد وسوء الظن والريبة والتحسر التي ترافق زوال الثروة عادة . فالأمريكيون ينظرون إلى تقدمهم هذا غير العادي بكثير من الزهو والفخر ، على أنهم لو نظروا إليه بالأسف والفرح لكانوا أعقل وأحزم . فلا بد أن يأتي على الولايات المتحدة وقت تصبح فيه أمة من أعظم أمم العالم ، ولسوف تنتشر ذرايعهم في أمريكا الشمالية كلها . فالقارة التي يسكنونها قارتهم ، ولا يمكن أن تفلت من أيديهم . فما الذي يدعوهم إذن إلى الإسراع في الاستيلاء عليها ، فالثراء والسلطان والشهرة لا يمكن أن تكون إلا لهم في وقت ما في المستقبل . ولكنهم مع ذلك يندفعون وراء جمع المال كأن لم يعد أمامهم سوى دقيقة واحدة كي تصير الثروة في أيديهم .

أظنني قد برهنت على أن بقاء الاتحاد الحالي يتوقف كل التوقف على استمرار موافقة

جميع المتحالفين فيه على بقاءه . وقد بدأت من هذا المبدأ أبحاث عن الأسباب التي قد تدعو بعض الولايات إلى الانفصال عن الأخرى . ومع ذلك فقد يهلك هذا الاتحاد بطريقتين مختلفتين . فقد تختار إحدى الولايات المتحالفة أن تفصل عن الميثاق ، وبذلك تنقسم عرى الرابطة الفدرالية بالضرورة . وعلى أساس هذا الفرض يصدق معظم ما ذكرته من ملاحظات . أو أن تضيع سلطة الحكومة الفدرالية تدريجياً من جراء نزعة الجمهوريات المختلفة المتحدة إلى استعادة استقلالها . فبعد أن تجرد السلطة المركزية من جميع امتيازاتها الواحدة بعد الأخرى ، وتصبح ضعيفة لا حول لها ولا قوة برضاها الضمني ، تصبح عاجزة عن أن تحقق غرضها ، وعندئذ يهلك الاتحاد الثاني كما هلك الأول بنوع أفن الشيوخوخة . فإضعاف الرابطة الفدرالية التدريجي ، ذلك الإضعاف الذي قد يؤدي في النهاية إلى انحلال الاتحاد ، ظرف قد يترتب عليه عدة عواقب صغرى منوعة ، قبل أن يؤدي إلى إحداث تغيير عفيف مثل هذا العنف . ومع ذلك فقد يظل الاتحاد قائماً على الرغم من أن حكومته قد وصلت إلى درجة من الجمود والضعف تشل الأمة ، وتؤدي إلى إشاعة الفوضى فيها ، وتعطل سير ازدهار البلاد العام ورخائها .

وبعد دراسة الأسباب التي قد تحمل الأمريكيين الإنجليز على التفكك والفرق ، من المهم أن نبحث ، في حالة إن كان الاتحاد سيظل قائماً ، وما إن كانت حكومتهم ستستمر في توسيع مجال عملها أو تعمل على تضييقه ، وعماً إن كانت ستصبح أكثر همة ونشاطاً ، أو أكثر ضعفاً وخوراً .

لا يخفى أن الأمريكيين يميلون إلى أن ينظروا إلى حالتهم التي هم فيها بشيء من الفزع . فهم يرون أن ممارسة حقوق السيادة تتجه في معظم أمم العالم إلى التجمع في أيدي فئة قليلة ، وأنهم يخشون كل الخشية أن يكون هذا مصير الأحوال في بلادهم . فحتى رجال السياسة أنفسهم يشعرون بهذه المخاوف أو هم يتظاهرون بأنهم يشعرون بها . ذلك لأن المركزية أمر غير مقبول في أمريكا بأية حال من الأحوال ، ولأنه لا يوجد أية وسيلة لاجتذاب الأغلبية أضمن من الشكوى بأن السلطة المركزية تتحدى على سلطة الولايات . فالأمريكيون لم يلاحظوا أن البلاد التي فيها مثل هذه النزعة المزعجة إلى المركزية ، بلاد يسكنها شعب واحد مفرد ، على حين أن الاتحاد يتكون من جماعات شتى مختلفة . فهذه الحقيقة تكفي لتفنيده كل الاستنتاجات التي يمكن أن تستبطن بطريقة التمثيل . ولست أخفي عن القارئ ميلى إلى اعتبار هذه المخاوف التي يشعر بها عدد كبير من الأمريكيين مخاوف وهمية . فبدلاً من أن أشاركهم في فزعهم من مركزية السلطة في أيدي الاتحاد ، أرى أن الحكومة الفدرالية آخذة في أن تضعف وتفقد قوتها بشكل واضح . وما أنا بحاجة إلى الالتجاء إلى ذكر أحداث بعيدة للتدليل على صحة هذا القول ، ولكنى ألجأ إلى أحداث وظروف شاهدها بنفسى عياناً في وقتنا الحاضر .

فلو أنا تعمقنا بحث ما يجري الآن في الولايات المتحدة لاقتنعنا بكل سهولة ويسر بأن هناك نزعتين متعارضتين أشبه بتيارين يسيران في مجرى واحد ولكن في اتجاهين متضادين . لقد مضى على الاتحاد الآن خمس وأربعون سنة أزال الزمن فيها كثيراً من ضروب التعصب الإقليمي التي كانت تناوئ قوة الاتحاد في بادئ الأمر ، وأصبح الشعور الوطني الذي ربط كل أمريكي بولايته التي ينتمي إليها أقل حدة ، وأصبحت أجزاء الاتحاد المختلفة أكثر مسالمة ومودة ، كلما ازدادت معرفة بعضها ببعض . فالبريد ، وهو وسيلة الاتصال العظمى ، يصل الآن إلى أعماق الغابات ، وأوجدت السفن البخارية وسائل اتصال يومية بين شتى نقط السواحل ، وقامت وسائل نقل بحرية ونهرية بنقل السلع بسرعة في أنهار البلاد صعوداً وهبوطاً بسرعة لا مثيل لها . ولا بأس من أن نضيف إلى التسهيلات التي أتاحتها الطبيعة تلك الميول والرغبات القلقة والرغبة في العمل والانشغال ، ومحبة الكسب ؛ فكلها حوافز تدفع الرجل الأمريكي باستمرار إلى أن يحيا حياة نشيطة ، وتجعله على صلة بسائر إخوانه المواطنين . فتراه يعبر البلاد الآن من كل جهة ، ويزور كل من فيها من مختلف الأقسام . فليس في فرنسا مديرية يعرف فيها الأهالي بعضهم بعضاً كما يعرف الثلاثة عشر مليوناً من الأمريكيين الذين يعيشون في أقاليم الولايات المتحدة ، بعضهم البعض .

فمادام الأمريكيون يختلطون بعضهم ببعض فسيزدادون تقارباً وتماماً ؛ فتناقص الفروق الناشئة عن اختلاف المناخ ، والأصل ، والمؤسسات ، ويظل المواطنون يقتربون باستمرار من الطراز العام المشترك . ففي كل سنة يغادر آلاف منهم الشمال ليستقروا في أجزاء شتى من أقاليم الاتحاد ، حاملين معهم معتقداتهم ، وآراءهم وآدابهم . وإذا كانوا أكثر استتارة من الذين سينزلون بين ظهرانيهم ، فإنهم سرعان ما يرتفعون إلى تولى رئاسة الشئون ، ويكيفون المجتمع بما فيه مصلحتهم هم . وهكذا تعاون هذه الهجرة المتواصلة من الشمال إلى الجنوب - تعاون - بوجه خاص ، على إدماج الصفات الإقليمية في خلق قومي واحد . ويبدو أن حضارة الشمال ستكون المعيار المشترك الذي ستأخذ به الأمة جمعاء في يوم من الأيام .

ازدادت قوة الروابط التجارية التي تربط الولايات المختلفة بعضها ببعض ، بازدياد الصناعة الأمريكية وتقدمها ، وبالاتحاد الذي أصبح يشكل تدريجياً في رأيهم جزءاً من عادات الأمريكيين . فقد أزاح الزمن الكابوس الذي كان جاثماً على خيال المواطنين سنة ١٧٨٩ . فلم تصبح السلطة الفدرالية ظالمة مرهقة ، ولم تهدم استقلال الولايات ، ولن تخضع المتحالفين لمؤسسات ملكية ، ولم يعمل الاتحاد على إثارة الولايات الصغرى على الكبرى . بل ظل الاتحاد الكونفدرالي يزداد في عدد سكان ، وفي الثروة والسلطة ، فلا غرو أن اقتنعت بأن العقبات الطبيعية التي تقوم في سبيل دوام الاتحاد الأمريكي ليست بالعقبات الكأداء ، كما كانت الحال في سنة ١٧٨٩ ، وبأن أعداء الاتحاد ليسوا بالكثرة التي كانوا بها من قبل .

ومع ذلك فإن درسنا تاريخ الولايات المتحدة في الخمس والأربعين سنة الأخيرة بمزيد من العناية، لاقتنعا في يسر بأن السلطة الفدرالية، آخذة في الضعف. وليس من الصعوبة في شيء تفسر الأسباب التي أدت إلى هذه الظاهرة. فعندما نشر دستور سنة ١٧٨٩ كانت الأمة بين برائن الفوضى، وكان الاتحاد الذي جاء عقب هذا الاضطراب قد أثار الكثير من الفزع والكراهية في نفوس الناس، ولكنه مع ذلك، نال تأييداً حاراً، لأنه سد حاجة ماسة؛ ومع أنه هوجم في ذلك الوقت أكثر مما يهاجم الآن، فسرعان ما وصلت القوة الفدرالية إلى ذروة السلطة، شأنها في ذلك شأن كل حكومة تظفر بالفوز بعد نضال شحذ قوتها، هذا، وقد بدا للناس في ذلك الوقت أن تفسر الدستور يميل إلى توسيع السلطة الفدرالية لا إلى تقيدها أو إضعافها. وتحمل الاتحاد من عدة وجوه في مظهر شعب واحد غير منقسم على نفسه، توجهه حكومة واحدة في شئون السياسة الداخلية والخارجية، ولكن الأمة لم تصل إلى هذه الدرجة من القوة إلا بعد أن سمت على نفسها إلى حد ما.

ولم يهدم الدستور «شخصية» الولايات الفردية، فالجماعات كلها أيًا كانت طبيعتها، تندفع نحو الاستقلال، تحفزها إليه غريزة خفية فيها، وتجلى هذه النزعة إلى الاستقلال بارزة في بلاد مثل أمريكا، حيث كل قرية فيها تشبه جمهورية اعتادت أن تحكم نفسها بنفسها. ومن ثم كان لابد للولايات من أن تبذل مجهوداً كبيراً في إذعانها للسيادة الفدرالية، ولاشك في أن كل جهود بذلت في هذا السبيل مهما كانت ناجحة، ستضعف بالضرورة بتضاؤل الأسباب والظروف التي استدعتها.

ولما وطدت الحكومة الفدرالية سلطتها، استأنفت أمريكا مركزها بين الأمم، وعاد السلام إلى تخومها، كما عادت إليها الثقة المالية، وأعقبت الفوضى حالة ثابتة مستقرة مكنت الناس من الاضطلاع بالمشروعات الصناعية في حرية واطمئنان. فهذا الرخاء نفسه، هو الذي أنسى الأمريكيين السبب الذي دعا إليه؛ فما أن زال الخطر عنهم حتى زالت معه الهمة والوطنية اللتان مكنتا لهم من مقاومته. فلما تخلصوا مما كان يرهقهم من متاعب وهموم، عادوا سراعاً إلى عاداتهم المألوفة، واستسلموا، دون أية مقاومة، إلى ميولهم الطبيعية؛ ولما خيل لهم أن لم تعد بهم حاجة ماسة إلى قيام حكومة قوية، أخذوا من جديد يرون أن مثل هذه الحكومة مصدر مضايقة وتعب. هذا، وقد ازدهر كل شيء في ظل الاتحاد، ولم تكن الولايات ميالة إلى التخلي عنه ولكنها أرادت أن تجعل عمل السلطة التي تمثلها هنا ضئيلاً هزياً بقدر الإمكان - لقد تم الاتفاق على مبدأ الاتحاد العام، ولكن كان ثمة نزعة إلى الاستقلال في كل جزئية صغيرة، لقد صاروا يسلمون كل يوم في يسر وسهولة ببدأ الاتحاد الكونفدرالي ولكنهم قلما كانوا يطبقونه فعلاً. وهكذا أدت الحكومة الفدرالية بما خلقت من نظام، وأوجدته من سلام واطمئنان، إلى تدهورها هي نفسها.

وما أن تجلت نزعة الرأي العام هذه سافرة، حتى شرع زعماء الأحزاب الذين

يعيشون على أهواء الشعب، في أن يستغلوها ويوجهوها شطر ما فيه مصلحتهم، وعندئذ أصبح مركز الحكومة الفدرالية بالغ الحرج فقد ظفر أعداؤها بمحبة الشعب، وصار لهم الحق في توجيه سياسته، بأن تعهدوا بالعمل على تقليل مال هذه الحكومة من نفوذ. ومنذ ذلك الوقت صارت حكومة الاتحاد مضطرة إلى التراجع كلما نزلت إلى حلبة الصراع مع حكومات الولايات. هذا، وكلما وضع تفسير لمواد الدستور الفدرالي، جاء عادة ضد الاتحاد وفي مصلحة الولايات.

لقد خول الدستور للحكومة الفدرالية أن ترعى المصالح القومية وتكفلها، وكان المعتقد أنه لا توجد سلطة أخرى أصحح منها للإشراف على إنجاز الإصلاحات الداخلية الكبرى التي تزيد في سعادة الاتحاد وازدهاره كله وذلك كشق الترع مثلاً. ولكن سرعان ما فزعت الولايات من أن ترى سلطة تستطيع أن تصرف هكذا في جزء من أملاكها، وخشيت أن تحصل الحكومة المركزية بهذه الوسيلة على سلطة «أبوية» هائلة في داخل الولايات، وتمارس نفوذاً، تريد هي أن تحتفظ به لعمالها ووكالاتها وحدهم. فقام الحزب الديمقراطي الذي كان يقاوم باستمرار ازدياد السلطة الفدرالية، واتهم الكونجرس بالاغتصاب، كما اتهم الموظف الأول، رئيس الدولة، بالطموح، فارتاعت الحكومة المركزية من هذه الصيحات، وانتهت إلى الاعتراف بأخطائها، وتعهدت أن تحصر نفوذها في المستقبل في نطاق الدائرة المرسومة لها.

لقد خول الدستور لحكومة الاتحاد الحق في أن تعقد المحالفات مع الأمم الأجنبية وكان المؤلف أن ينظر إلى القبائل الهندية التي تناخم مضاربا حدود الولايات المتحدة، على هذا الضوء، أي باعتبارها دولاً أجنبية. فمادام هؤلاء الهمجيون يقبلون أن يتراجعوا أمام تقدم المستوطنين المتحضرين لم يكن ثم مجال لنزاع بشأن الحق الفدرالي. ولكن إذا ما حاولت قبيلة هندية أن تقيم مساكنها في بقعة معينة، لتستقر فيها طالبت الولايات المجاورة لها بحق ملكيتها لتلك الأراضي. كما طالبت بحق السيادة على سكانها من الأهالي، وسرعان ما كانت الحكومة المركزية تعترف لها بهذين الحقين. وبعد أن عفدت معاهدات مع الهنود بوصفهم أمماً مستقلة تركتهم على أنهم رعايا مجالس الولايات التشريعية ولاستبداها.

هذا وقد امتدت بعض الولايات التي تأسست في أول إنشائها على شواطئ المحيط الأطلسي - امتدت نحو الغرب، إلى غير حد، في الأقاليم الموحشة التي لم تطأها قدما أوربي من قبل. وعندئذ جعلت الولايات التي سبق أن تعينت حدودها نهائياً بشكل لا رجعة فيه، تنظر بعين الطمع إلى الأقاليم الفسيحة المترامية الأطراف التي أضحيت مفتوحة أمام جيرانهم. فأرضاء لها وافقت الولايات الأولى على تعيين حدودها، على أن تترك جميع الأراضي التي وراء أقاليمها للاتحاد في جملته. ومن ذلك الوقت صارت الحكومة المركزية هي المالكة لجميع الأراضي غير المزروعة التي تقع وراء حدود الثلاث عشرة ولاية

التي تكون منها الاتحاد في البداية، فأصبح لها الحق في تقسيم هذه الأراضي وفي بيعها - وكانت الأموال التي تحبى من هذا المصدر تودع في الخزينة العامة لينفق منها على شراء الأراضي من الهنود ولشق الطرق المؤدية إلى المواضع النائية، وعلى استعمال تطوير المجتمع وتقدم الحضارة. هذا، وعلى مر الزمن تكونت ولايات جديدة وسط تلك المفاوز والمجاهل التي سبق أن سلمتها الولايات الواقعة على شواطئ المحيط الأطلسي، وظل الكونجرس يبيع الأراضي غير المنزرعة التي لهذه الولايات الجدد لمصلحة الأمة كلها.. ولكن هذه الولايات انتهى بها الأمر أن صارت تؤكد أنها، بعد أن أصبحت ذات كيان رسمي مقرر لها، صاحبة الحق في أن تحول غلات هذه الأراضي الميعة لمصلحتها هي وحدها. فلما اشتدت احتجاجاتها وصارت تهدد بما لا يحمد عقباه، رأى الكونجرس من المصلحة أن يحرم الاتحاد من بعض الامتيازات التي ظل يستمتع بها إلى الآن، فأصدر في آخر سنة ١٨٣٢ قانوناً قضى بتسليم الشطر الأعظم من الإيرادات الواردة من بيع الأراضي غير المنزرعة - إلى جمهوريات الغرب الجدد، وإن كانت الأراضي نفسها لا تسلم إليها.

وحسب المرء جولة سريعة في الولايات المتحدة حتى يتبين المزايا التي تستمدها هذه البلاد من بنك الولايات المتحدة، وهي مزايا مختلفة الأنواع، ولكن واحدة منها تستثير الدهشة بوجه خاص في نفس الغريب عن البلاد. فأوراق البنك المالية التي يصدرها البنك تعتبر قيمتها عند حدود البرارى بنفس القيمة التي لها في فلادلفيا ذاتها، حيث يقوم البنك بشئون عملياته المصرفية.

ولكن بنك الولايات المتحدة هذا كان مع ذلك موضع عداوة مريرة. فقد أعلن مديره عداوته لرئيس الجمهورية، ومن جهة أخرى اتهموا هم بأنهم أساءوا استخدام نفوذهم ليعارضوا انتخابه، وهو اتهام قد يكون في محله. ومن أجل هذا هاجم الرئيس مؤسسة البنك هجوماً عنيفاً بكل ما في العداوة الشخصية من مرارة، وقد شجعه في الاستمرار في انتقامه الشخصي اعتقاده أنه مؤيد بما تنطوي عليه الأغلبية من ميول خفية إليه. ويعد هذا البنك الرابطة المالية الكبرى التي تربط أجزاء الاتحاد بعضها ببعض، كما يعد الكونجرس الرابطة التشريعية الكبرى. هذا، وقد عاوت على هدم البنك تلك الشهوات والأهواء نفسها التي تهدف إلى جعل الولايات مستقلة عن السلطة المركزية.

كان بنك الولايات المتحدة يحتفظ دائماً بمقدار كبير من الأوراق المالية التي تصدرها بنوك الولايات المختلفة. وكان في مقدوره أن يجبر هذه المصارف على أن تحول هذه الأوراق المالية إلى نقد في أي وقت يشاء. أما هو فلم يكن يخشى على نفسه منها شيئاً من مثل هذا الطلب، لأن غزارة موارده تمكنه من مواجهة طلباتها ولكن حياة المصارف الإقليمية تصبح بذلك في خطر، وتصبح عملياتها مقيدة محصورة، إذ أنها لا تستطيع أن تصدر من الأوراق المالية إلا مقداراً يتناسب مع رؤوس أموالها، ومع ذلك فقد أذعت في جزع لهذه الرقابة السليمة. وقامت الصحف التي اشترتها الولايات بالأموال، وقام الرئيس الذي جعلته

مصالحه أداة طيعة في أيديها ، تهاجم البنك هجوماً عنيفاً ، واستتارت الشهوات المحلية ، ونزعة البلاد الديمقراطية الفطرية العمياء ، لتكون في صفها تؤيد قضيتها ، ودأبت تؤكد أن مديري البنك كونوا هيئة أرستقراطية دائمة سيصبح نفوذها في النهاية ذا تأثير في الحكومة ، وقد يؤثر في مبادئ المساواة التي يقوم المجتمع على أساسها .

لم يكن النضال بين البنك وخصومه سوى حادث واحد في ذلك الصراع الكبير الناشب في أمريكا بين الولايات المختلفة وبين السلطة المركزية ، بين روح الاستقلال الديمقراطية وبين روح التوزيع السليم للسلطة وللسلطة التابعة . ولست أبغى أن أقول إن خصوم البنك هم الأفراد أنفسهم الذين هاجموا الحكومة الفدرالية في نقاط أخرى ، وإنما أريد أن أقرر أن الهجمات التي تعرض لها بنك الولايات المتحدة نشأت في ذات الميول التي تعارض قيام الحكومة الفدرالية وتناضل ضدها ، إن كثرة خصوم البنك كثرة كبيرة تعد أمانة مؤسفة على تناقص قوة الحكومة الفدرالية .

ولكن لم يحدث أن أظهر « الاتحاد » ضعفاً أشد مما أظهره أمام مشكلة التعريف^(١) الشهيرة ، فقد أدت حروب الثورة الفرنسية ، وحرب سنة ١٨١٢^(٢) إلى إنشاء مؤسسات صناعية في الجزء الشمالي من الاتحاد من جراء قطعها الاتصال الحر بين أمريكا وأوروبا . فلما تم عقد الصلح ، وعادت المواصلات إلى مجاريها المعتادة ، ووصلت المنتجات الأوروبية إلى بلاد الدنيا الجديدة ، رأى الأمريكيون أن مصالحهم تقتضي أن ينشئوا نظاماً من المكوس يفرض على البضائع المستوردة ليحققوا به غرضاً مزدوجاً ، يحمون به مصانعهم الناشئة ، ويتمكنون من دفع ما عليهم من ديون كانوا قد اقترضوها في أثناء الحرب . فالولايات الجنوبية التي ليس لديها مصانع تذكر ، من جراء أنها بلاد زراعية محض ، بادرت وجأرت بالشكوى من هذا الإجراء . لست أدعى أني أبحث هنا عما إذا كانت شكواها هذه تقوم على أساس وطيء ، وإنما أنا أسرد الحقائق ليس إلا .

ففي سنة ١٨٢٠ أعلنت كارولينا الجنوبية في شكوى لها رفعتها إلى الكونجرس أن التعريف « غير دستورية .. وأنها ظالمة مجحفة » . ثم اعترضت عليها فيما بعد كل من ولايات جورجيا وفرجينيا وكارولينا الشمالية ، وألاباما ، والميسيسي اعترضات تختلف في شدتها . ولكن الكونجرس . بدلاً من أن يصفى إلى هذه الشكاوى ، زاد معايير التعريف الجمركية في سنتي ١٨٢٤ و ١٨٢٨ وأقر من جديد المبدأ الذي قامت على أساسه . وعندئذ أعلن في الجنوب قانون باسم قانون الإبطال (Nullification)^(٣) أو بالأحرى أنه أعيد إلى الحياة . سبق أن أشرت في الموضوع المناسب أن الغرض من الدستور الفدرالي لم يكن تكوين

(١) ثار جدل عنيف أدى إلى تقرير الأخذ بمبدأ حماية التجارة قرره المجلس سنة ١٨٢٤ .

(٢) حرب قامت بين أمريكا وبريطانيا في أثناء ما كانت الثانية في صراعها مع نابليون وانتهت بصلح (غنت) في

ديسمبر سنة ١٨١٤ وانتهت دون أن يكون لها أية نتيجة دولية .

(٣) أي حق الولاية في المناقشة في أمر بطلان قرارات اتخذها الكونجرس .

حلف ، بل خلق حكومة قومية . فأمرىكيو الولايات المتحدة يكونون شعباً واحداً لا يتجزأ في جميع الأحوال التي حددها الدستور . وقد عبرت الأمة عن إرادتها في جميع تلك النقاط بصوت الأغلبية ، كما هي الحالة في جميع الأمم الدستورية . فإذا ما قالت الأغلبية قولتها كان من واجب الأقلية أن تدعن لها . ذلك هو المبدأ القانوني السليم ، وهو المبدأ الوحيد الذي يوفق مع نص الدستور المعروف من نيات أولئك الذين وضعوه .

هذا وعلى العكس من ذلك يعتقد أنصار «الإبطال» من أهل الجنوب أن نية الأمريكيين في اتحادهم لم تكن أن يكونوا من أنفسهم شعباً واحداً قائماً بنفسه ، ولكنهم قصدوا تكوين حلف من شعوب مستقلة ليس إلا . وعلى ذلك فإن كل ولاية تحفظ سيادتها كاملة ، قانوناً (de jure) إن لم تستطع أن تحتفظ بها في الواقع (de facto) ولها الحق في أن تفسر قوانين الكونجرس التفسير الذي تراه ، وأن توقف عملها في دائرة إقليمها الخاص إذا ما تبين لها أنها غير دستورية ، أو أنها مجحفة غير عادلة .

ويتلخص قانون «الإبطال» هذا كله ، في جملة ذكرها السيد كلهون (Calhoun) نائب رئيس الجمهورية ، ورئيس ذلك الحزب في الجنوب ، قالها أمام مجلس الشيوخ في الولايات المتحدة سنة ١٨٣٣ . فقد قال «الدستور ميثاق ، الولايات أطراف فيه بوصفها أصحاب سيادة ، والآن كلما دخلت أطراف في ميثاق لاتعترف فيه بأى حكم مشترك يكون رأيه الفيصل في النهاية ، صار لكل منها الحق في أن تحكم بنفسها ، فيما يتعلق بطبيعة الأداة ومداهم والتزاماتها . وظاهر أن مثل هذا المبدأ يقوض أساس الدستور الفدرالي ويعيد الأمريكيين إلى تلك الفوضى التي أنقذهم منها دستور سنة ١٧٨٩ .

فلما رأت كارولينا الجنوبية أن الكونجرس قد أصم أذنيه عن سماع احتجاجاتها هددت بتطبيق مبدأ «الإبطال» هذا على قانون التعريف الفدرالي .. ولكن الكونجرس تشبث بنظامه ، فهبت العاصفة . ففي سنة ١٨٣٢ عقد شعب كارولينا الجنوبية مؤتمراً أهلياً لبحث الإجراءات غير العادية التي بقي عليهم أن يقوموا بها . ففي الرابع والعشرين من شهر نوفمبر السنة عينها أذاع هذا المؤتمر قانوناً على صورة مرسوم ألغى قانون التعريف الفدرالي وأبطل عمله ، وحرّم فرض الضرائب والمكوس التي قررها ذلك القانون ، ورفضت أن تعترف بالاستئناف الذي يمكن أن يرفع إلى المحاكم الفدرالية .. وهذا القانون لا ينفذ إلا في شهر فبراير التالي . وقد أشير فيه إلى أنه إذا عدل الكونجرس التعريف قبل هذه المدة فقد ترضى كارولينا الجنوبية بالألتابع تهديتها إلى أبعد من ذلك . ثم بدت رغبة غامضة فيما بعد إلى عرض المسألة على جمعية غير عادية تتألف من جميع ولايات الاتحاد ، وفي الوقت نفسه قامت كارولينا الجنوبية بتسليح حرسها الأهلي واستعدت للقتال .

ولكن هذا الكونجرس الذي استخف برعاياه الذين جاءوا يرفعون إليه مطالبهم أصغى إلى شكواهم عندما كسروا عن أنيابهم ، وظهروا أمامه والسلاح في أيديهم ، فحدث

صدر قانون تخفيض مكوس التعريف تدرجياً لمدة عشر سنوات حتى تصل إلى درجة لا تزيد على ما يسد الاحتياجات الحكومية الضرورية ، وبذلك يكون الكونجرس قد نزل تماماً عن مبدأ التعريف ، وأحل مجرد ضريبة مالية محل نظام الحرية الصناعية . وكى تصون حكومة الاتحاد ماء وجهها وتخفى ما أحاق بها من هزيمة التجأت إلى وسيلة معهودة للحكومات الضعاف ؛ فإنها سلمت بالموضوع من ناحية الواقع ، ولكنها ظلت مستمسكة به من حيث المبادئ . وبينما كانت تغير قانون التعريف ، أجازت مشروع قانون يحول للرئيس سلطات غير عادية تمكن له من أن يتغلب بالقوة على مقاومة لم يعد أحد يخشى جانبها .

ولكن كارولينا الجنوبية لم ترض أن تدع الاتحاد ينعم حتى بمظاهر النجاح الهزيلة هذه . فال مؤتمر الأهلى الذى ألقى مشروع التعريف انعقد هو نفسه مرة أخرى ، وقبل العرض المقدم إليه ، إلا أنه أعلن في الوقت نفسه المثابرة في الأخذ بمبدأ الإبطال مثابرة موصولة لاهوادة فيها . وكى يؤيد ما قال قرر إلغاء القانون الذى يقضى بمنح الرئيس سلطات استثنائية ، على الرغم من أنه كان من المؤكد ألا ينفذ هذا القانون .

حدثت معظم المناقشات التى تكلمت عنها ترواً ، أو حدثت كلها في مدة رئاسة الجنرال جاكسون^(١) . ولانزاع في أنه أيد حق الاتحاد في مسألة التعريف بهمة وبراعة ، ومع ذلك فيخيل إلى أن سلوك رئيس الحكومة الفدرالى هذا قد يعد خطراً من الأخطار التى تهدد الآن بقاء هذه الحكومة .

لقد ارتأى بعض الناس في أوربا رأياً خاصاً بشأن ما للجنرال جاكسون من سلطان على شئون بلاده . وهو رأى يبدو مسرفاً بالغ الإسراف لمن خبروا الموضوع عن كتب . قيل إن الجنرال قد انتصر في عدة معارك ، وإنه رجل نشط يميل بالطبع وبالعادة إلى استخدام القوة . فهو محب للسلطة ومستبد بسليقته . قد يكون هذا كله حقاً . ولكن النتائج التى رتبها على هذه الحقائق جاءت خاطئة كل الخطأ . فقد توهموا أن الجنرال جاكسون عاقد العزم على إقامة دكتاتورية في أمريكا ، وإدخال الروح الحربية فيها ، وإعطاء مزيد من النفوذ للسلطة المركزية لا يمكن أن يكون إلا مضراً بحريات الأقاليم ، ولكن وقت القيام بمثل هذه الأمور في أمريكا وحصر الرجال الذين من هذا الطراز لم يحينا بعد .. فإن كان الجنرال جاكسون قد فكر في استخدام سلطته على هذا النحو لكان قد خسر مركزه السياسى ، ما في ذلك من شك ، ولوضع حياته في مأزق حرج . إنه لم يبلغ به الحرق أن يحاول شيئاً من هذا القبيل .

لقد كان الرئيس جاكسون بعيداً كل البعد عن الرغبة في توسيع السلطة الفدرالية ، فهو من الحزب الذى يعمل على الحد من هذه السلطة بشكل تتبع فيه حرفية الدستور

(١) الجنرال أندرو جاكسون الرئيس السابع للولايات المتحدة (١٨٢٩ - ١٨٣٧) ولى مدته زار المؤلف الولايات

الواضحة اليقينية .. والذي لا يسمح بتفسير مادة من مواد القانون الفدرالى تفسيراً تراعى فيه مصلحة حكومة الاتحاد . فما أبعدته عن أن يقف موقف بطل المركزية ! إنه يمثل أحقاد الولايات وغيرها بعضها من بعض ، فقد وضعت في مركزه السامى تلك الأهواء التى تعارض الحكومة المركزية أشد المعارضة ، فاستطاع بتملقه هذه الأهواء في كل يوم ، أن يحافظ على مركزه وشهرته بين الشعب . فالجنرال جاكسون صنيعة الأغلبية ، ولا غرو إن كان يستسلم لرغباتها ونزعاتها ويلبى كل مطالبها . وإن شئت ، قلت عنه ، إنه كان يسبق الزمان في استجابته لنزعات الأغلبية هذه ورغباتها ، ويحققها لها قبل أن تعبر عنها هذه الأغلبية نفسها .

وكلما اصطدمت حكومات الولايات بحكومة الاتحاد كان الرئيس أول من يشك في حقوقه عادة ، فهو يكاد يتخطى الهيئة التشريعية دائماً . وعندما يكون مدى السلطة الفدرالية موضوع الأخذ والرد ، وقف موقفاً ضد نفسه ، فهو يخفى مصالحه الرسمية ويعمل جاهداً للتقليل من شأن مقامه هو ويتستر وينكر نفسه كل الإنكار . وليس معنى ذلك أنه ضعيف بطبيعته أو معاد للاتحاد ، فعندما وقعت الأغلبية ضد المطالبين بالإبطال من أهالى الجنوب وضع نفسه على رأسها ، وأكد في وضوح ونشاط المبادئ التى تستمسك بها الأمة ، وكان أول من أوصى باستعمال القوة . ولكن الجنرال جاكسون يبدو في نظرى ، إذا سوغ لى أن أستعمل تعبيراً من تعبيرات الأحزاب الأمريكية ، فدرالياً بيموله ، وجمهورياً بعقله وتديره .

ويتظاهر الجنرال « بالتمسكن » والضعف كى يحظى باجتناب الأغلبية إليه ؛ ولكن ما إن يشعر بأن شهرته بين الشعب مكفولة ، حتى يسارع ويزيل كل العقبات الملقاة في السبل المؤدية إلى الأهداف التى ترتضيها الجماعة أو تلك التى لا تغار عليها ولا تتحمس لها . ولما كانت ثم قوة تؤيده لم يحظ بها رئيس قبله ، فقد جعل يدوس أعداءه الشخصيين إذا ما اعتراضوا سبيله ، وإنه ليفعل ذلك بسهولة منقطعة النظر . فتراه يأخذ على نفسه تبعة الإجراءات التى لم يحدث أن رئيساً ممن سبقوه تجرأ وحاول أن يقوم بها .. فقد كان يعامل ممثلى الأمة أنفسهم بشيء من الازدراء ، يكاد يبلغ حد الإهانة . فكان يستخدم حق « الفيتو » ضد قوانين الكونجرس . وكثيراً ما كان يغفل حتى الإجابة على ماتطلبه منه هذه الهيئة القوية . إنه لصنيعه يتدلل على سيده ويعامله أحياناً بشيء من الغلظة ، والجفوة . فقوة الجنرال جاكسون تزايد باستمرار ، أما قوة الرئيس جاكسون فتضاءل . فالحكومة الفدرالية قوية في يديه ، لكنها ستنتقل إلى يدى خليفته ضعيفة هزيلة .

إنى لأخطىء خطأ غريباً إن لم تفقد حكومة الولايات المتحدة الفدرالية قوتها على الدوام وتنسحب تدريجياً من الشؤون العامة . وتضيق نطاق عملها ونشاطها ؛ فهى ضعيفة بطبيعتها ولكنها تهجر الآن كل شيء .. حتى مجرد الظهور بمظهر القوة . ومن جهة أخرى يحيل إلى أنى لاحظت في الولايات شعوراً قوياً بالاستقلال وتعلقاً لاشك فيه بحكوماتها

المختلفة . فالاتحاد مرغوب فيه . ولكن من حيث هو خيال ليس إلا . إنهم يريدون منه أن يكون قوياً في بعض الحالات ، وضعيفاً في سائرها . فيجب أن يكون في وقت الحرب قادراً على تركيز كل قوى الأمة وجميع موارد البلاد في يديه ، أما في وقت السلم فلا أحد يكاد يحس بوجوده ، كأن هذا الضعف ، وهذا النشاط المتعاقبان أمران جائزان في طبيعة الأشياء .

ولست أعرف إلى الآن شيئاً يستطيع أن يوقف نزعة الرأي العامة هذه . فالأسباب التي فيها نشأت ، لاتقف عن العمل في هذا الاتجاه عينه ، ومن ثم ستظل هذه النزعة مستمرة . ولا بأس من أن نسبق الحوادث ونقول إن حكومة الاتحاد ستظل تضعف يوماً عن يوم إلا إذا استجد حادث خارق للعادة .

ومع ذلك ، ففي اعتقادي أن الوقت الذي فيه يؤدي عجز السلطة الفدرالية هذا عن حماية نفسها ، وعن صيانة السلام في داخل البلاد - إلى القضاء عليها قضاء تاماً - هذا الوقت لا يزال بعيداً . فالاتحاد مؤيد بعادات الشعب ورغباته ؛ ونتاجه ملموسة ؛ ومنافعه ظاهرة مرئية لاتخفى على أحد .. فإذا ما أدرك الناس أن ضعف الحكومة الفدرالية يجعل حياة الاتحاد في خطر ، فلاشك عندي في حدوث رد فعل يرمى إلى إعطائه مزيداً من القوة والسلطان .

إن حكومة الولايات المتحدة هي الوحيدة بين جميع الحكومات الفدرالية التي قامت إلى الآن ، الوحيدة .. التي قدر لها أن تعمل . فمادام تغير قوانينها لا يتم إلا بطرق غير مباشرة ، ومادام جوهرها سليماً لم يضعف ضعفاً خطيراً ، فإن تغيير الرأي أو حدوث أزمة داخلية ، أو قيام حرب ، قد يعيد إليها كل ما تقتضيه من نشاط^(١) . فالذي حرصت كل الحرص على إبرازه إنما هو هذا . لقد خيل لكثير من الناس في فرنسا أن تغييراً في الرأي العام يجري الآن في الولايات المتحدة ، وأن هذا التغيير يتلاءم مع مركزية السلطة في يدي الرئيس والكونجرس . أما أنا فأعتقد ، أننا نستطيع أن نرى في وضوح وجود نزعة أخرى عكس هذه النزعة على خط مستقيم . فكلما تقدمت السن بالحكومة الفدرالية أصبحت بعيدة كل البعد عن اكتساب أية قوة جديدة ، وعاجزة كل العجز عن تهديد سيادة الولايات ، حتى صرت أعتقد أنها آخذة في الضعف والتدهور ، وأن سيادة الاتحاد هي وحدها التي في خطر . هذه هي الحقائق التي يسفر عنها الوقت الحاضر . أما المستقبل فيخفى نتيجة هذه النزعة الأخيرة ، والأحداث^(٢) التي يحتمل أن توقف تيار تلك التغييرات التي وصفتها توأ أو تعطله أو تزيد سرعته . هذا ولست أدعى أن في استطاعتي إزاحة الستار الذي يخفي تلك الأحداث وتلك النزعة .

(١) حدث ما توقعه المؤلف . فقد قامت الحرب الأهلية في الولايات المتحدة بين الشمال والجنوب (١٨٦١-١٨٦٥) وظلت قوة الحكومة الفدرالية تزداد باستمرار وتحتل كذلك بارزة في الحربين العالميتين الأخيرتين .
(٢) كانت هذه الأحداث هي أحداث الحرب الأهلية التي قامت بين الولايات الشمالية والولايات الجنوبية (١٨٦١-١٨٦٥) .

المؤسسات الجمهورية في الولايات المتحدة وما أمامها من فرص للبقاء

الاتحاد حادث عارض - والمؤسسات الجمهورية أبقي منه وأدرم - الجمهورية هي حتى الآن حالة الأمريكيين الإنجليز الطبيعية - القضاء عليها يقتضى تغيير القوانين كلها في وقت واحد، وإحداث تغيير عظيم في أخلاق الناس وعاداتهم كلها - العقبات التي تقوم في سبيل الأمريكيين إن هم حاولوا إقامة أرستقراطية بينهم .

إن تفكك أو اصر الاتحاد الذى ينجم عن قيام الحروب في قلب الولايات « المتحالفة » الآن، وما يترتب على ذلك من إدخال نظم الجيوش القائمة، وإقامة ديكتاتورية غشوم، وفرض ضرائب باهظة، قد يؤدي في النهاية إلى الإصرار بمصير المؤسسات الجمهورية . ولكن يجب ألا نخلط بين ما ينتظر الجمهورية في المستقبل، وبين ما ينتظر الاتحاد . فالالاتحاد أمر عارض لا يدوم إلا ما بقيت الظروف والأحوال مواتية له، على حين أن الشكل الجمهورى يبدو لى أنه الحالة الطبيعية عند الأمريكيين . وليس يستطيع شيء أن يحولها إلى ملكية سوى أسباب معادية تعمل باستمرار في اتجاه واحد بعينه . فالالاتحاد موجود أساساً في القانون الذى خلفه . فتورة واحدة، أو تغيير واحد في الرأى العام، قد يكفى للقضاء عليه إلى الأبد، ولكن الجمهورية تقوم على أساس أوطد من ذلك وأعمق .

إن ما يفهمونه في الولايات المتحدة من الحكومة الجمهورية لا يعدو تأثير المجتمع في نفسه تأثيراً بطيئاً هادئاً . فالحكومة الجمهورية في نظرهم حالة اجتماعية منتظمة تقوم أساساً على إرادة الشعب المستترة . فهي حكومة مسالمة، يترك فيها للقرارات وقت كاف لتختم وتناقش، ولا تنفذ إلا بعد أن ينضج الرأى فيها تمام النضج . هذا، ويعلم الجمهوريون في الولايات المتحدة من قيمة الأمور الأخلاقية، ويحترمون المعتقدات الدينية، ويعترفون بالحقوق، ويرون أن الشعب يجب أن يكون أخلاقياً، متديناً، معتدلاً، عفيفاً، بقدر ما يجب أن يكون حراً . وليس ما يسمونه « بالجمهورية » في الولايات المتحدة، سوى حكم الأغلبية الهادىء الذى يعدونه المصدر العام الذى تستمد منه الدولة كل سلطاتها . وهو لم يصبح كذلك إلا بعد أن استغرق الوقت الكافى في فحص نفسه، وأثبت وجوده فعلاً . ولكن قوة الأغلبية هذه ليست بالقوة المطلقة غير المحدودة، ففوقها، من الناحية الأخلاقية، الإنسانية والعدالة والعقل؛ وفوقها، من الناحية السياسية، حقوق مقررمة . هذا وتسلم الأغلبية بوجود هذين الحدين الحاجزين، فإن حدث وتحدتهما أحياناً، فما ذلك إلا أنها لها أهواؤها، شأنها شأن الأفراد؛ وهى معرضة مثلهم، لأن تقع في الخطأ، وإن كانت تعرف ما هو صواب وحق .

ولكن الخطباء الشعبيين في أوروبا قد توصلوا إلى كشوف عجيبة ! فليست الديمقراطية في نظرهم حكم الأغلبية، كما ظل الناس يعتقدون إلى الآن، بل هى حكم أولئك

الذين يناصرون تلك الأغلبية ويؤيدونها بكل ما في وسعهم من طاقة ومن جهد . فليس الشعب بصاحب الكلمة العليا في مثل هذا الشكل من الحكومة ، ولكن أصحابها أولئك الذين يعرفون ماهو أصلح للشعب وأفيد له . وتلك تفرقة سعيدة تخول للناس أن يعملوا باسم الأمم ، من دون أن يستشيروها ، ويقفوا على رأيا ، كما تخول لهم أن يطالبوها بشكرهم على حين تكون حقوقها مديسة بالأقدام . وزيادة على ذلك فهم يعتقدون أن الحكومة الديمقراطية هي الحكومة الوحيدة التي لها الحق في أن تعمل ما تشاء ، وتحتقر كل ما للناس من أسمى القوانين الأخلاقية وقواعد الذوق السليم المعهودة . فقد ظل الناس حتى عصرنا هذا يعتقدون أن الاستبداد أمر ممقوت في كل صورة من صوره ، ولكن تم كشف جديد توصلوا إليه اسمه الطغيان المشروع والظلم المقدس ماداما يمارسان باسم الشعب . إن الآراء التي ارتآها الأمريكيون بشأن الجمهورية تيسر لهم أن يعيشوا في كنفها ، وتكفل لهم بقاءها . فعندهم أن الجمهورية ، على الرغم من أنها كثيراً ما تكون سيئة من الوجهة العملية ، صالحة من الوجهة النظرية على الأقل ، وسينتهى الشعب بأن يعمل وفقها دائماً في كل ما يعمل .

كان من المستحيل ، عند تأسيس الولايات المتحدة ، إنشاء إدارة مركزية في أمريكا ، ولا يزال ذلك اليوم أمراً بالغ الصعوبة . فالسكان مبعثرون في بقاع واسعة مترامية الأطراف ، وتفصلهم بعضهم عن بعض عوائق طبيعية كثيرة يعجز معها أى فرد عن أن يضطلع بإدارة جزئيات شئونهم . فأمريكا تعد إذن بلاد حكومة الولايات ، والبلديات ، وقد شعر بهذا السبب جميع الأوربيين الذين يعيشون في الدنيا الجديدة ؛ هذا ، وقد أضاف إليه الأمريكيون الإنجليز أسباباً أخرى خاصة بهم .

فلما نزل المستعمرون أمريكا الشمالية ، كانت الحرية في الحكم المحلي قد تغلغت في القوانين الإنجليزية تغلغلها في عاداتهم ، واعتقها المهاجرون ، لامن حيث هي شىء ضرورى لاغنى عنه ، ولكن من حيث هي نعمة عرفوا كيف يقدرونها قدرها الصحيح . هذا ، وقد سبق أن رأينا كيف تأسست المستعمرات في أمريكا . فكل مستعمرة ، بل وكل مركز تقريباً ، كان يسكنها قوم غرباء بعضهم عن بعض جمعت بينهم أغراض مختلفة كل الاختلاف .. فالإنجليز الذين استقروا في الولايات المتحدة رأوا من وقت مبكر أنهم ينقسمون جماعات عديدة متمايزة ليس لهم مرجع واحد مشترك بينهم يرجعون إليه ، فكان على كل جماعة من تلك الجماعات الصغار أن تتولى السهر على شئونها بنفسها مادامت لا توجد سلطة مركزية مضطرة بطبيعة الحال إلى رعاية هذه الجماعات وتزويدها بما يسد حاجاتها في سهولة ويسر . فطبيعة البلاد ، والطريقة التي تأسست بها المستعمرات البريطانية ، وعادات المهاجرين الأول - وفي الجملة كل شىء - قد تصافرت بدرجة غير عادية على مناصرة الحريات في الولاية وفي القرى ، والبلديات .

وهكذا نرى أن جملة المؤسسات التي في الولايات المتحدة، مؤسسات جمهورية بالضرورة. فكي تهدم القوانين هدماً تاماً، والقوانين أساس كل جمهورية، يجب أن تُلغى كلها دفعة واحدة، وأنه لأشق في وقتنا الحاضر على أى حزب أو أية جماعة، أن تشيء حكومة ملكية في الولايات المتحدة، من أن تقوم فئة من الناس وتحول فرنسا إلى جمهورية. فالملكية لا تجد أمامها نظاماً عتيداً جاهزاً من التشريع أعد لها من قبل ليكون تحت تصرفها. فعندما تقوم الملكية تجد نفسها محوطة بمؤسسات ديمقراطية. وكذلك يجد المبدأ الملكي صعوبة كبيرة في النفاذ إلى عادات الأمريكيين وعرفهم والتغلغل فيها.

ليست سيادة الشعب مبدأ منفصلاً قائماً بذاته في الولايات المتحدة لاصلة له بعادات الشعب وأفكاره الغالبة عليه.. بل الأمر على العكس من ذلك حقاً. فهذا المبدأ يصح اعتباره آخر حلقة في سلسلة من الآراء، تربط أجزاء عالم الأمريكيين الإنجليز.. ولقد وهبت العناية الإلهية كل إنسان قسطاً من الذكاء، لا بد منه، ليوجه به نفسه في الشئون التي تمهه هو خاصة. هذه هي القاعدة الكبرى التي تقوم على أساسها الجماعات السياسية والمدنية في الولايات المتحدة؛ فترى رب الأسرة يلتزم هذه القاعدة مع أولاده، ويطبقها السيد على أتباعه وحشمه، وتطبقها القرية على مواطنيها جميعاً، والمقاطعة على قراها، والولاية على مقاطعتها، والاتحاد على الولايات كلها.. فإذا امتدت هذه القاعدة وشملت الأمة كلها صارت هي مذهب سيادة الشعب.

وهكذا نرى أن مبدأ الجمهورية الأساسي في الولايات المتحدة هو نفسه المبدأ الذي يسيطر على الشطر الأعظم من أعمال بنى الإنسان. فالأفكار الجمهورية تنسرب إلى جميع أفكار الأمريكيين وعاداتهم، وتعترف بها القوانين اعترافاً رسمياً.. فقبل تغير القوانين إذن، يجب أن يحدث انقلاب يشمل المجتمع كله... فحتى دين أغلب المواطنين في أمريكا جمهورى، مادام يخضع الحقائق المتصلة بالآخرة لعقل الفرد، كما أن مصالح الشعب الدنيوية قد تركت، في عالم السياسة، لفطرته السليمة. وهكذا صار لكل إنسان الحرية في أن يختار الطريق الذي يعتقد أنه سيؤدى به إلى الجنة - كما أن القانون يخول لكل مواطن الحق في أن يختار شكل الحكومة التي تحكمه.

وواضح أن لاشيء غير سلسلة متلاحقة من الأحداث، كل حادث منها يتجه نفس الاتجاه، يمكن أن تحل محل هذه المجموعة من القوانين والآراء والآداب، مجموعة أخرى مضادة لها من قوانين وآراء وآداب.

لو قدر للمبادئ الديمقراطية أن تزول من أمريكا، فإنها لن تستسلم إلا بعد عملية اجتماعية شاقة تعطل كثيراً، ثم تعود وتستأنف عملها من جديد، وسيكون لها نهضات عدة ظاهرة، ولن تزول تماماً، إلا عندما يأتي شعب جديد كل الجدة ويحل محل الشعب الموجود الآن.. هذا وليس ثمة أى علامة أو نذر عن اقتراب مثل هذا الانقلاب.. ولاشء

يدهش من ذلك التهجج الصاحب الذى يصادفه فى المجتمع السياسى . فالقوانين تتغير باستمرار .. ويبدو لأول وهلة أنه من المستحيل على أمة مترددة مثل هذا التردد بشأن ما تريد، أن تتحاشى فى فترة قصيرة كل القصر اختيار شكل جديد كل الجدة من أشكال الحكم . ولكن أمثال هذه المخاوف سابقة لأوانها . فعدم الاستقرار الديمقراطى الذى يؤثر فى المؤسسات السياسية نوعان ، يجدر بنا ألا نخلط بينهما . فأول هذين النوعين يعدل القوانين الثانوية ، ولا يتنافى مع أية حال اجتماعية مستقرة كل الاستقرار . أما النوع الآخر فيهب الدستور ويزعزعه من أساسه ، ويهاجم مبادئ التشريع الأساسية ، وتعقبه دائماً متاعب وثورات . وتكون الأمة التى تعانى منه الكثير فى حالة عنيفة وعابرة لا تلبث أن تزول ، ويحل محلها غيرها .

لقد علمتنا الخبرة أن ليس بين هذين النوعين من عدم الاستقرار أى اتصال ضرورى ، لأنهما وجدا متحدين ، أو منفصلين بحسب الأوقات والأحوال . فالأول عام فى الولايات المتحدة ، وليس الثانى . فكثيراً ما يغير الأمريكيون قوانينهم ، أما أساس الدستور فلا يمسونه . فهو موضع احترام دائم منهم .

هذا وقد سيطر فى أيامنا هذه المبدأ الجمهورى على أمريكا ، كما كان يسيطر المبدأ الملكى على فرنسا أيام لويس الرابع عشر . فلم يكن الفرنسيون فى ذلك العصر أصدقاء الملكية فحسب ، بل كانوا يظنون أنه من المستحيل أن يحل شىء آخر محل هذا المبدأ الملكى . فقد استقبلوه كما نستقبل نحن أشعة الشمس ، وعودة الفصول المختلفة . فليس للسلطة الملكية عندهم أى خصوم يعارضونها ، ولا أنصار ، يدافعون عنها ؛ وكذلك الحال فى الحكومة الجمهورية فى أمريكا ، فلانزاع فى أمرها ، ولا خصوم لها ، ولا حاجة بها إلى أدلة وحجج ، فقد تم ذلك كله باتفاق ضمنى صامت ، كأنه نوع من الإجماع المطلق .

ومع ذلك ، فمن رأى ، أن سكان الولايات المتحدة ، بتغييرهم أشكال الإدارة عندهم يمثل تلك الكثرة التى درجوا عليها ، إنما يضررون باستقرار حكومتهم . هذا ، ويخشى على الناس الذين يصدمون باستمرار فى مقاصدهم ومشروعاتهم من جراء توالى التغيير فى التشريعات - يخشى عليهم أن يعتادوا النظر إلى الجمهورية على أنها نظام متعب من نظم الحكم . فقد يشكك الشر الناجم من عدم استقرار القرارات والقوانين الثانوية ، الناس فى طبيعة مبادئ الدستور الأساسية ، فيؤدى بطريقة غير مباشرة إلى حدوث ثورة أو انقلاب ، ولكن هذا اليوم لا يزال بعيداً كل البعد .

ومن الميسور أن نتكهن ، من الآن ، بأن الأمريكيين إذا ما أضاعوا مؤسساتهم الجمهورية وصلوا سريعاً إلى حكومة استبدادية ، من غير أن يمروا بفترة طويلة من الملكية المحددة . فقد لاحظ منتسكيو : ليس ثمة شىء أكثر إطلاقاً من سلطة أمير يتولى العرش

عقب جمهورية مباشرة . لأن السلطات غير المحدودة التي كانت قد وضعت بكل جرأة في أيدي حاكم منتخب ، تنقل إلى أيدي ملك وراثي . وهذا حق في جملة . ولكنه يصدق بوجه خاص على جمهورية ديمقراطية . فالحكام في الولايات المتحدة لا تنتخبهم طبقاً خاصة من المواطنين ، بل تنتخبهم غالبية الأمة . ولما كانوا الممثلين المباشرين لأهواء الجمهور . ويعتمدون كل الاعتماد على مشيئته وعلى هواه . فهم لا يستثرون كراهية ولا خوفاً . ومن ثم ، كما أشرت من قبل . لم تتخذ سوى احتياطات قليلة للحد من سلطانهم . بل ترك لهم قسط كبير من السلطة التحكمية . فترتب على هذا الوضع عادات راسخة لا تزول . فالحاكم الأمريكي سيحتفظ بسلطته غير المحدودة . ولكنه لا يكون عندئذ مسئولاً عنها . ومن المستحيل على أحد قبول أى قيود أو حدود يمكن أن تفرض عندئذ على استبداده وطغيانه .

وينتظر بعض الساسة الأوربيين أن يروا الأرستقراطية تقوّم في أمريكا . وقد تنبأوا فعلاً بالوقت الذى تنوئ فيه أزمة الحكم . وعينوه على وجه التحديد . هذا . وسبق أن أشرت إلى ما أعود وأكرره الآن . من أن نزعة المجتمع الأمريكى الحالية تبدو أنها تزداد كل يوم ديمقراطية عن اليوم الذى قبله . ومع ذلك فلست أؤكد أن الأمريكين لن يضيّقوا في وقت ما في المستقبل دائرة الحقوق السياسية . أو يصادروا هذه الحقوق على طبقة خاصة من المواطنين ، أو بعبارة أخرى لا أعتقد أبداً أنهم سينشئون طبقة أرستقراطية في يوم ما .

تتكون كل هيئة أرستقراطية من عدد معين من المواطنين لا يعلنون عن جملة الشعب علواً كبيراً . ومع ذلك يتبعون مركزاً دائماً فوق مستوى الشعب . فهى هيئة من الناس يسهل الاتصال بها ويتعذر الاعتداء عليها . فالشعب متصل بها في كل يوم . ولكنه . مع ذلك ، لا يستطيع أن يندمج فيها أبداً . ونيس ثمة شئ يتناقى مع الطبيعة البشرية . ومع الغرائز الخفية في النفس البشرية . تنافياً أكثر من مثل هذا النوع من الخضوع . فمن يتركون وشأنهم يعملون بحسب ماتوجيه إليهم نفوسهم . ويؤثرون دائماً أن يحكمهم ملك غشوم متحكم . من أن تدير شؤونهم أرستقراطية . بانتظام . فالمؤسسات الأرستقراطية لا تستطيع أن تعيش من غير أن تجعل تفاوت الناس مبدأ أساسياً لها فتجعله من البداية أمراً مشروعاً . ثم تعمل به في الأسرة كما تعمل به في المجتمع . ولكن هذه كلها أمور تناقض المساواة الطبيعية كل التناقض ، لدرجة أنها لا يمكن أن تتزع من الناس إلا بالقوة والعنف .

لاظن أحداً يستطيع أن يذكر لنا شعباً واحداً مند وجدت اجتماعات الإنسانية إلى الآن ، قد أقام باختياره الحر ، وبجهوده نفسه أرستقراطية في عقر داره . فجميع الأرستقراطيات التي ظهرت في العصر الوسيط لم تقم إلا بالفتوح الحربية . فالفتاح هو النيل . ويصبح المقهورون أقاء عبيداً للأرض ، وعندئذ يفرض التفاوت - وعدم المساواة -

على الناس بالقوة، وما إن دخل مرة في عادات البلاد وآدابها، حتى استقر وبقى، وصار بطبيعة الحال جزءاً من القوانين. هذا، وقد وجدت جماعات كانت أرسطراطية منذ بداية نشأتها، بسبب ظروف وأحوال سابقة على وجودها هذا، ثم صارت تزداد ديمقراطية عسراً بعد عصر. وهذا ما حدث للرومان، وللبرابرة من بعدهم. فلو أن شعباً نشأ في الحضارة والديمقراطية، ثم يقيم التفاوت بين الناس تدريجياً حتى يصل به الأمر إلى إقامة امتيازات خاصة، مصونة لا يتعدى على أصحابها أحد، وطبقات اجتماعية مغلقة، لا يدخلها غير أعضائها -، لكان ذلك بدعة جديدة في العالم حقاً. وليس ثمة ما يدل على أن أمريكا ستكون أول أمة تقدم لنا مثلاً على ذلك.

بضع ملاحظات على الأسباب التي أدت إلى ازدهار التجارة في الولايات المتحدة

هيات الطبيعة الولايات المتحدة لأن تكون أمة بحرية عظيمة - مدى سواحلها - عمق مرافئها - طول أنهارها - ومع ذلك تفوق الأمريكيين في التجارة يرجع إلى أسباب أخلاقية وفكرية أكثر مما يرجع إلى ظروف بلادهم الطبيعية - السبب في هذا الرأي - مستقبل الأمريكيين الإنجليز من حيث هم أمة تجارية - انحلال الاتحاد لا يؤدي إلى تعطيل نشاطه التجاري - سبب ذلك - يقوم الأمريكيون بطبيعة الحال بسد احتياجات أمريكا الجنوبية - وسيصبحون كالإنجليز وكلاء تجاريين جزء كبير من العالم .

تمتد سواحل الولايات المتحدة من خليج «فنداي» إلى نهر «ساباين» الذي يصب في خليج المكسيك؛ ويبلغ طولها أكثر من ألفي ميل، متصلة كلها بعضها ببعض، وخاضعة لحكومة واحدة. فليس في العالم أمة تملك موانئ أوسع وأعمق وأكثر أمناً للتجارة مما يملكه الأمريكيون.

فسكان الولايات المتحدة شعب متحضر عظيم ألقت به يد الأقدار وسط بلاد غير منزرعة، تبعد ثلاثة آلاف ميل عن مركز الحضارة، فلا غرو إن كانت أمريكا بحاجة مستمرة إلى أوروبا. هذا، وليس من شك في أن الأمريكيين سيضطرون آخر الأمر إلى أن ينتجوا، أو يصنعوا في بلادهم القسط الأكبر مما يحتاجون إليه من السلع، ومع ذلك فهاتان القارتان لا يمكن أن تستغني إحداهما عن الأخرى، فالروابط الطبيعية التي تربط احتياجاتهما، وأفكارهما، وعاداتهما بعضها ببعض كثيرة.

فللتحادي سلع خاصة به أصبحت الآن ضرورية للأوروبيين لأنها لا يمكن أن تزرع في أراضيهم، أو بعبارة أخرى لا تزرع إلا بنفقات باهظة.. والأمريكيون لا يستهلكون من هذه المحصولات سوى جزء صغير، ومن ثم فهم على استعداد لأن يبيعوا للأوروبيين الفائض عن حاجتهم منها. فأوروبا سوق أمريكا إذن، كما أن أمريكا سوق أوروبا. فالتجارة الخارجية ضرورية لتمكين سكان الولايات المتحدة من نقل مواردهم إلى الموانئ الأوروبية، كما أنها

ضرورية تمكين أوروبا من إمداد أمريكا بالسلع المصنوعة . فعلى الولايات المتحدة إذن ، إما أن تقدم للأمم البحرية الأخرى أعمالاً كثيرة ، حتى ولو هجرت هي الاشتغال بالتجارة ، كما فعل الأسبانيون في المكسيك إلى الآن ، وإما أن تعمل على أن تصبح دولة من أكبر الدول البحرية في العالم .

لقد أظهر الأمريكيون الإنجليز دائماً ميلاً شديداً إلى العمل في البحار . فقد حطم إعلان الاستقلال القيود التجارية التي ربطت الأمريكيين ببلاد الإنجليز ، وكان ذلك حافزاً قوياً جديداً حرك ميولهم البحرية وأبرزها . فازدادت منذ ذلك الوقت حمولات سفن الولايات المتحدة زيادة سريعة تشبه زيادة سرعتها في عدد السكان . ويقوم الأمريكيون أنفسهم بنقل تسعة أعشار ما يستهلكون من المنتجات الأوربية التي يستوردونها ، وينقلون على سفنهم ثلاثة أرباع ما يصدرونه إلى موانئ أوروبا للمستهلك الأوربي . فسفن الولايات المتحدة تملأ موانئ الهافر وليربول على حين أن عدد السفن الإنجليزية والفرنسية قليل نسبياً .

وهكذا صار التاجر الأمريكي لا ينافس التجار في بلاده فحسب ، بل صار ينافس تجار الأمم الأوربية في موانئهم . ويرجع ذلك إلى أن سفن الولايات المتحدة تمرر البحار بنفقات أقل . فمادامت سفن أمريكا التجارية تحافظ على هذه الميزة ، فإنها سوف تحتفظ بما اكتسبه ، وتظل تزداد ازدهاراً باستمرار .

ليس من السهل تحديد السبب الذي يجعل الأمريكيين يسرون سفنهم بنفقات أقل مما تسير الأمم الأخرى سفنها بها . وقد يميل المرء إلى أن يعزو ذلك لأول وهلة إلى ما منحته الطبيعة البلاد من مزايا ، ولكن الأمر ليس كذلك ؛ فصنع سفينة أمريكية يتكلف من النفقات ما تتكلفه السفينة الفرنسية ، ذلك إلى أن صنعها ليس خيراً من سفن فرنسا ، ولا هي تعمر أطول منها ، وأجر الملاح الأمريكي أعلى من أجر زميله الأوربي ؛ ويؤيد ذلك عدد الأوربيين الذين يعملون في سفن الولايات المتحدة التجارية . فكيف حدث إذن أن استطاع الأمريكيون أن يسروا سفنهم بأسعار أقل مما يستطيع الأوربيون تسير سفنهم ؟ يبدو لي أن السبب الحقيقي في تفوقهم ليس ما لهم من مزايا جغرافية ، ولكن الأمر يرجع إلى ميزات أخلاقية وفكرية .

والموازنة الآتية توضح ما أرمى إليه . ففي أثناء المعارك التي قامت في أثناء الثورة الفرنسية أدخل الفرنسيون نظاماً جديداً في التكتيك ، الحربي حير أساطين القواد ، وكاد يقضى على أقدم الدول الملكية في أوروبا . فقد حاول الفرنسيون أن يجاربوا على الرغم مما كان ينقصهم من كثير من الأشياء التي كان المحقق أنها لا يمكن الاستغناء عنها في الحروب ، وكان لابد لهم من جهود جديدة تقوم بها جيوشهم ، لم تحظر على بال أمة من الأمم المتحضرة من قبل ، فأنجزوا أعمالاً جساماً في وقت يكاد لا يصدق ، لقصره ؛ وخطروا بالأرواح في غير تردد ليحققوا الأهداف التي رموا إليها . وكان ما لدى الفرنسيين من المال والرجال أقل مما لدى أعدائهم ، وكانت مواردهم دون موارد أعدائهم بكثير . وعلى الرغم

من ذلك كان النصر معقوداً بألويتهم باستمرار، ولم يفارقها إلا بعد أن عمد خصومهم إلى محاسنهم واقتباس طرقهم .

ولقد أدخل الأمريكيون نظاماً مثل هذا النظام في تجارتهم؛ فعملوا في سبيل رخص الأسعار ما عمله الفرنسيون في الفتوح والانتصار على أعدائهم . فالملاح الأوربي يسير سفنه في حزم وكياسة، فلا تراه يقلع إلا إذا كان الجو صالحاً للإقلاع^(١) . وإذا ما صادفه حادث غير منظور أرسى بسفينته في الميناء؛ وإذا جن الليل عمد إلى جزء من أشرعتة يطويها، وإذا ما رأى الزبد الأبيض أخذ يطفو على أنباج الأمواج في المحيط، مما يبشر بقرب الشاطئ، خفف من سيره، وجعل يرصد الشمس . أما الملاح الأمريكي فيغفل كل هذه الاحتياطات، ويقتحم هذه الأخطار في غير مبالاة؛ فيرفع مرساته، ويقلع بسفينته قبل أن تبدأ هائجة العاصفة، وينشر قلوعه تستقبل الريح بالليل وبالنهاري؛ وإذا ما أصيبت سفينته بشيء من العطب من جراء العاصفة، قام بإصلاحه، في أثناء مسيره؛ وإذا ما اقترب من نهاية المطاف اندفع نحو الشاطئ، كأنه قد لمح الميناء فعلاً . وكثيراً ما تعرض سفن الأمريكيين للعطب والتحطم، ولكن ليس ثمة تاجر يعبر البحار بالسرعة التي يعبرها بها الأمريكيون . ولما كانوا يقطعون المسافة التي كان يقطعها الملاحون الأوربيون، في وقت أقصر، فهم يتمونها بنفقات أقل .

ومن عادة الملاح الأوربي أن يمر بعدة موانئ مختلفة في أثناء رحلته الطويلة، ويضيع كثيراً من الوقت الثمين في دخول الميناء وفي انتظار هبوب الريح المواتية، قبل أن يخرج من المرفأ . ذلك إلى أنه يدفع كل يوم رسوماً نظير بقائه في الميناء . أما الملاح الأمريكي فيبدأ من «بوسطن» ليشتري شياً من الصين فيصل إلى ميناء كانتون ثم يقفل راجعاً . ففي أقل من سنتين يقطع ما يعادل محيط الكرة الأرضية، ولا يكون قد رأى الأرض غير مرة واحدة . صحيح أنه قد لا يتناول غير الماء الأجاج طوال الثانية أو العشرة الشهور التي قد يظل طول سفرته يصارع البحر والمرض والتعب، ولكنه بعد أوبته من رحلته الطويلة يستطيع أن يبيع رطل الشاي بأقل مما يبيعه به التاجر الإنجليزي بنصف بنس، وبذلك يكون قد حقق موارده .

لأستطيع التعبير عما أقصده بأفضل من أن أقول إن الأمريكيين يبدون نوعاً من البطولة في طريقهم التي ينجونها في التجارة؛ أما التاجر الأوربي فيشق عليه دائماً أن يحاكي منافسه الأمريكي الذي صار، بالنظام الذي أسلفت شرحه، لا يجرى على خطط مدروسة من قبل، بل يعمل مدفوعاً بجوافز من سليقته .

يدرك سكان الولايات المتحدة جميع الاحتياطات والرغبات التي تترتب على استحجار الحصار وتقدم العمران، وإذا كانوا غير محوطين، كما هي الحال في أوروبا، بشعوب نظمت شئوننا بمهارة على نحو يسد هذه الحاجات وتلك الرغبات، فقد وجدوا أنفسهم مضطرين

(١) لا يخفى أن السفن الشراعية كانت لاتزال هي وسائل النقل البحري . فأول سفينة بخارية اجتازت المحيط الأطلسي من أوروبا إلى أمريكا قامت من أوروبا في ٢٢ أبريل سنة ١٨٣٨ .

في كثير من الأحيان إلى أن يحصلوا بأنفسهم على مختلف الأشياء التي جعلها التعليم والعادة أموراً ضرورية لاغنى عنها . فكثيراً ما يحدث في أمريكا أن يكون الشخص الواحد هو الذي يحرث الأرض بنفسه ، ويبنى مسكنه ، ويبني عددده وآلاته ، ويصنع حذاءه ويفزل الخيوط البسيطة التي ينسج بها كساءه . وليس من شك في أن هذا كله مضر بتجويد الصنعة وإحكامها ولكنه يعاون كل العون على إيقاظ ذكاء العامل . فليس ثمة شيء يجعل المرء مادياً ويجرد شغله من أدنى أثر للعقل والتفكير ، مثل الإسراف في تقسيم العمل . ففي بلاد أمريكا ، حيث الأخصائيون نادرون ، لا يتطلب الأمر من يريد الاشتغال بحرفة ما أن يمضي وقتاً طويلاً في التدريب عليها . فلا غرو أن كان الأمريكيون يغيرون بكل سهولة الوسائل التي يكسبون بها رزقهم . ويكيفون مهنتهم بحسب ما تقتضيه أحوالهم . ولا يشق عليك أن تصادف أشخاصاً اشتغلوا على التوالي محامين وزرعاً ، وتجاراً وقسماً وأطباء . فإن كان الأمريكي لا يبلغ في أية حرفة يمتنها درجة الكمال التي يبلغها الأوربي فإنه قد زاول على الأقل الكثير من الحرف حتى لا تكاد تكون ثمة حرفة يجهلها كل الجهل . إن مقدرته أعم وأشمل من مقدرة الأوربي . وأفق تفكيره أوسع .

الأمريكيون لا يتقيدون أبداً بقواعد المهنة المقررة ، فهم يعملون على تفادي كل تحزب يتعلق بمركزهم الحالي ، ولا يتعلقون بطريقة معينة من طريق العمل أكثر من تعلقهم بغيرها ، ولا هم يميلون إلى إبتار طريقة عتيقة على أخرى جديدة . فليس فيهم عادات راسخة متأصلة ، وليس أسهل عليهم من أن ينفضوا عن أنفسهم الأثر الذي قد تركه فيهم عادات الدول الأخرى ، اعتقاداً منهم بأن بلادهم تختلف عن سائر بلاد العالم ، وأن موقعها لا مثيل له فيه . فأمرريكا بلاد العجائب حقاً . فكل شيء فيها في حركة دائمة لا تنقطع ، وكل تغيير يعد في نظرهم تحسناً . ففكرة التجديد متصلة عندهم بفكرة التحسين اتصالاً وثيقاً لا ينفصم . فظاهر أنهم لم يفرضوا أي حد من حدود الطبيعة على جهود الإنسان ونشاطه ، فالأمريكي يرى أن الأمور التي لم تعمل ليست سوى تلك التي لم يحاول أحد أن يعملها بعد .

إن التغيير الدائم الحاد في الولايات المتحدة ، وتغير حظوظ الناس وكثرة ما يجري من تقلبات في ثروة البلاد العامة ، وثروة الفرد الخاصة - كلها تجعل عقول الشعب في استتارة موصولة لا تنقطع أشبه بحمي المحموم ، مما يشجعهم على المزيد من بذل الجهود ، ويجعلهم فوق مستوى البشر العادي ، إن صح لنا هذا التعبير . فحياء الأمريكي تمر كلها وكأنها لعبة من ألعاب الحظ والمصادفة أو أزمة ثورية ، أو معركة من المعارك . ولما كانت الأسباب الفعالة باستمرار في طول البلاد وعرضها واحدة لا تتغير ، فقد صارت في النهاية حافزاً قوياً كل القوة يدفع الخلق القومي إلى المزيد من التماسك والنبات . فكل أمريكي ، لا بد أن يكون إذن شخصاً ذا رغبات وميول قوية ، مغامراً مجاً للمخاطرات ، وقبل كل شيء ، مغرماً كل الغرام بكل جديد . وتتجلى هذه النزعات نفسها في كل ما يزاوله ، فهو يدخلها في قوانينه السياسية ، وفي معتقداته الدينية ، ونظرياته في الاقتصاد الاجتماعي ، بل وفي هواياته وأشغاله المنزلية ، وينقلها معه إلى أعماق الغابات كما يتبعها كذلك في إدارته

الأعمال في المدينة . فهذا الغرام نفسه ، إذا ما طبق على التجارة الخارجية ، جعل التاجر الأمريكي أرخص تجار الدنيا كلها وأسرعهم في تلبية الطلبات .

ومادام ملاحو الولايات المتحدة يحتفظون بهذه المزايا العقلية وبتفوقهم العمل الذي يستمدونه منها ، فإنهم لا يستمرون في سد حاجات المنتجين والمستهلكين في بلادهم فحسب ، بل سيتجهون إلى أن يكونوا الوكلاء التجاريين للأمم الأخرى ، مثلهم في ذلك مثل الإنجليز . وقد أخذت هذه النبوءة تتحقق فعلاً ، فبرى التجار الأمريكيين يعملون وسطاء في تجارة كثير من الأمم الأوربية وستكون أمريكا نفسها مجالاً أوسع من أوروبا لنشاطهم .

أصبحت المستعمرات الكبرى التي أنشأها الإسبان والبرتغاليون في أمريكا الجنوبية إمبراطورية واسعة^(١) . ولكن الظلم المتتالي والحروب الأهلية تعمل الآن على تدمير هذه الأقاليم المترامية الأطراف . فعدد السكان لا يزداد ، وسكانها القليلون المبعثرون في كل مكان منهمكون كل الانهماك في شئون الدفاع عن النفس ، حتى بلغ بهم الأمر أنهم لم يعودوا يحاولون تحسين أحوالهم . ولكن الأمر لن يظل كذلك على الدوام . لقد نجحت أوروبا بمجهودها ، في اختراق ظلمات العصور الوسطى . ففي أمريكا الجنوبية نفس القوانين والعادات التي للأوروبيين ، وفيها بذور الحضارة التي برزت ونمت بين دول أوروبا ، أو ما تفرع منها ، وذلك فضلاً عن المزايا والفوائد المستمدة من حضارة الأوروبيين ؛ فما الذي يجبرها على أن تظل غير متحضرة إذن ؟ لا يخفى أن المسألة مسألة وقت ليس إلا ، ففي المستقبل ، وقد يكون هذا المستقبل قريباً أو بعيداً ، سيكون سكان أمريكا الجنوبية أمماً مزدهرة ومستترة .

ولكن عندما يشعر الإسبان والبرتغاليون الذين في أمريكا الجنوبية بالاحتياجات العامة التي تتطلبها جميع الأمم المتحضرة ، سيظلون ، مع ذلك ، عاجزين عن سد هذه المطالب بأنفسهم . وإذا كانوا أصغر أبناء الحضارة سناً ، كان عليهم ، بالضرورة ، أن يسلموا بتفوق إخوتهم الأكبر منهم . إنهم سيظلون زراعين أمداً غير قصير ، قبل أن ينجحوا في تصنيع بلادهم ، أو في التجارة - وسيحتاجون إلى الوسطاء ليقايسوا لهم بمنتجاتهم - المنتجات التي تمس إليها الحاجة من وراء البحار .

ليس من شك في أن الأمريكيين الشماليين سيدعون في يوم قريب لأن يزودوا أمريكي الجنوب بما يحتاجون إليه من السلع . فقد جعلتهم الطبيعة متجاررين في الديار ، وزودت الأولين بكل وسيلة ممكنة لمعرفة هذه الاحتياجات وتقديرها ، ولإقامة علاقات دائمة بتلك الدول ، ولملء أسواقها بالسلع تدريجياً . هذا ، ولا يخشى تاجر الولايات المتحدة

(١) تحررت البرازيل من الاستعمار البرتغالي سنة ١٨١٤ وأصبحت مملكة في ١٣ مايو سنة ١٨٢٢ واخبر دون بدور حامياً للبرازيل مدى حياته وأعلن إمبراطوراً عليها في ١٢ أكتوبر سنة ١٨٢٢ - هذا وقد عزل ابنه وهو يحمل اسم أبيه نفسه سنة ١٨٨٩ ، وهكذا وبعد ٦٧ سنة من الحكم الإمبراطوري صارت دولة البرازيل جمهورية اتحادية باسم ولايات البرازيل المتحدة .

من أن يخسر هذه المزايا الطبيعية . فإن كان دون التاجر الأوربي بكثير ، فهو يفوقه من نواح عدة . فقد صار لأمريكي الولايات المتحدة نفوذ أدبى عظيم في كل شعوب الدنيا الجديدة . فهم مصدر وحيها وتفكيرها .

وقد ألف سكان هذه القارة أن يعدوا الأمريكيين أكثر أعضاء الأسرة الأمريكية استتارة وقوة وثراء . فكل الأبصار تتجه إذن إلى الولايات المتحدة ، إذ هي المثل الذى تحاول الجماعات الأخرى أن تحاكيه ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً . فهي تقتبس مبادئها السياسية وقوانينها من الاتحاد الأمريكى .

هذا ، ويقف أمريكىو الولايات المتحدة إزاء سكان أمريكا الجنوبية نفس الموقف الذى وقفه أجدادهم الإنجليز من قبل إزاء الإيطاليين والإسبانيين والبرتغاليين وسائر دول أوروبا التى تحصل على أدوات استهلاكها اليومى من إنجلترا ، بسبب تخلف هذه الدول عن الإنجليز حضارياً وتجارياً ، ف إنجلترا تعد الآن المستودع الطبيعى لجميع الدول التى يسهل الاتصال بها أو معظمها على الأقل . وسيقوم الاتحاد الأمريكى بالدور نفسه هذا فى النصف الآخر من الكرة الأرضية . فكل دولة تأسست فى الدنيا الجديدة ، أو ازدهرت فيها ، إنما تأسست وازدهرت لما فيه مصلحة الأمريكىين الإنجليز هؤلاء .

فلو حدث أن انحل الاتحاد لتعطلت إلى حين تجارة الولايات التى يتكون منها الآن ، ما فى ذلك شك ، ولكنه سيكون تعطلاً أقل مما يظنه الناس . ولا يخفى أن الولايات المتحدة ستظل متحدة بعضها مع بعض ، مهما حدث من أمور ؛ فهي متجاورة وتمتع بوحدة فى مصالحها ، وفى آرائها ، وكذلك فى أخلاقها وآداب السلوك عندها ، فهذه الولايات وحدها قوة بحرية كبرى . وحتى إن فرضنا أن الجنوب استقل عن الشمال فإنه سيظل مفتقراً إلى خدمات الولايات الشمالية . وقد سبق أن أشرت إلى أن أقاليم الجنوب لا تعد بلاداً تجارية ، وليس لدينا اليوم شئ يدل على أنها ستكون كذلك يوماً ما . فسيظل الأمريكيون الذين يقطنون جنوب الولايات المتحدة مضطربين زمناً طويلاً إلى أن يلجأوا إلى الأجانب ليصدروا لهم غلاتهم ومنتجاتهم ، وليزودوهم بالسلع اللازمة لسد احتياجاتهم . ولكن لاشك فى مقدرة الولايات الشمالية على أن تقوم للجنوبيين بأعمال الوسيط بأجور أرخص مما يمكن أن يقوم لها بها سائر التجار . وعلى ذلك فالجنوبيون سيظلون يحتفظون بخدمات الشماليين التجارية هذه ، لأن رخص الأسعار هو القانون الأساسى فى الاتجار . وليس فى مقدور الإدارة السيادية العليا ، والنعرات القومية أن تظل تقاوم رخص الأسعار هذا زمناً طويلاً . ولا شئ أفسى من الكراهية التى بين أمريكى الولايات المتحدة والإنجليز ، ولكن على الرغم من هذا الشعور العدائى فالأمريكيون يستمدون أكثر مما عندهم من السلع المصنوعة من إنجلترا ، لأنها توردها لهم بأسعار أقل من أية دولة أخرى . وعلى هذا فازدهار أمريكا المتزايد يصبح ، على الرغم من حقد الأمريكىين ، من مصلحة الصناعات الإنجليزية .

يدلنا العقل ، وتؤيده الخبرة أن الازدهار التجارى لا يدوم طويلاً إذا لم تسنده وقت الحاجة قوة بحرية . فهذه حقيقة تعرفها الولايات المتحدة حتى المعرفة كما تعرفها كل دولة أخرى . لقد استطاع الأمريكيون أن يجعلوا عَلمَهم (رايتهم) محترماً ، ولن تمضى سنوات قلائل حتى يصبح مرهوب الجانب . وإني لوائق من أن حل الاتحاد لن يؤدي إلى إضعاف قوة الأمريكيين البحرية . بل إنه ليعاون كل العون على زيادتها وتقويتها . فالولايات التجارية مرتبطة في الوقت الحاضر بولايات أخرى ليست تجارية تنظر متحسرة إلى تزايد قوة بحرية لا يتيسر لها أن تفيد منها إلا بطريقة غير مباشرة . وعلى النقيض من ذلك ، إن توحدت الولايات التجارية ، وجعلت من نفسها أمة واحدة ، تبوأَت التجارة مركز الصدارة في مصالحها القومية ، وعندئذ تكون مستعدة للقيام بتضحيات كبيرة لحماية سفنها التجارية ، وليس ثمَّ شيء يحول دون استمرارها في رغباتها في هذه المنطقة .

الأمم كالأفراد ، يكاد الواحد منهم ، يكشف دائماً منذ صغره ، عن الملامح الرئيسية لمستقبله المقدر له . فكلما فكرت في المهمة التي يبدىها الأمريكيون في التجارة ، والميزات التي تعاونهم ، والنجاح الذى يصاحب مايقومون به من مشروعات تجارية ، لا يسعنى إلا أن أعتقد أنهم سيكونون في يوم ما أعظم دولة بحرية في العالم ، فقد ولدوا ليسيظروا على البحار ، كما سيطر الرومان على البر من قبل .

ختم

هأنذا قاربت الفراغ من بحثي . فقد حاولت ، طيلة الكلام على مستقبل الولايات المتحدة ومصائرها ، أن أقسم الموضوع أقساماً متميزة ، كى يتيسر لى توفية كل قسم حقه من الدرس . أما الآن فأود أن أنظم كل ما سبق أن قلته فى سلك واحد ، وأنظر إليه من وجهة نظر واحدة . وسأراعى أن يكون ما سأذكره خلواً من التفاصيل ، ولكنه أوثق وأكثر تأكيداً . وسأرى كل شىء على صورة أقل وضوحاً ، بيد أنى سأميز الحقائق الرئيسية تمييزاً أدق . ألا ترى الساحل الذى غادر تولا إحدى المدن الكبرى وجعل يصعد فى التل المجاور لها ، لا يستطيع كلما ابتعد عنها ، أن يرى الناس الذين تركهم فيها تولا ، ويرى مساكنهم وقد اختلطت عليه حتى بدت له كتلة واحدة ضخمة ، ولم يعد فى استطاعته أن يميز الميادين العامة ، ولا يكاد يرى الطرق الكبرى ؟ ومع ذلك فهو لا يجد أية صعوبة فى تتبع تحوم المدينة ، ويستطيع لأول مرة أن يرى شكلها كلها جملة واحدة . ويحيل إلى أنى أرى مستقبل الجنس البريطانى فى أمريكا الشمالية . فتفاصيل هذه الصور العريضة الهائلة ستبقى غامضة ، ولكن نظرتى ستشمل الكل فى جملته ، وسيتاح أن أكون فكرة جلية عن الموضوع كله .

إن الأراضى التى تملكها الولايات المتحدة الأمريكية الآن ، أو تحتلها تبلغ ٢٠/١ (١) من جملة الأراضى القابلة للسكنى فى العالم كله . ومهما كانت هذه الأراضى فسيحة فلا يخطر بغيرك أحد أن الأمريكين الذين من أصل إنجليزى سيظلون دائماً يعيشون فى نطاق حدودها . والواقع أنهم قد تجاوزوا هذه الحدود بمراحل طوال .

هذا ، وقد أتى على الفرنسيين حين من الدهر كانوا هم أيضاً يستطيعون أن يخلقوا أمة فرنسية عظيمة فى برارى أمريكا ومجاهلها كى يقاوموا بها ما للإنجليز من سلطان على مقدرات تلك الدنيا الجديدة . فقد كانت فرنسا تملك إقليماً واسعاً فى أمريكا الشمالية لا تقل مساحته كثيراً عن مساحة أوربا بأسرها . فكانت أنهار هذه القارة الثلاثة العظمى تجرى فى أملاكها ، وكانت القبائل الهندية التى تقطن بين مصب نهر سنت لورانس ودلتا الميسيسى لم تتعود التخاطب بأية لغة غير اللغة الفرنسية ، وكانت جميع الجاليات الأوربية المبعثرة فى هذا الإقليم المترامى تذكر الناس بما للفرنسيين من تقاليد . فكنت تسمع أسماء مثل لويزبرج Louisburg وممرانسى Montmorency ودوكين Duquesne وسان لوى St.Louis وفانسن Vincennes ونيو أورليانز New Orleans فلك هى أسماءهم (٢) - وكلها عزيزة على فرنسا وعزيزة على أسماخ بنينا ، ومألوفة لهم كل الألفة .

(١) لم تعد هذه النسبة كذلك الآن . لتزايد العمور فى العالم بطبيعة الحال .

(٢) كانت لويزبرج حصن أكادى ، وهى برفاسكوشيا الحالية إحدى مقاطعات كندا . وكانت ممرانسى فى مستعمرة كويك . أما دوكين فقع جنوبى بحيرة أبوى ونقع سان لوى عند ملتقى نهر الميسورى بالميسيسى . وفانسن بلدة فى ولاية أنديانا على الضفة اليسرى من نهر الويش . ونوفل أورليان (نيو أورليانز) تقع عند مصب نهر الميسيسى وقد أسسها فرنسى سنة ١٧١٨ وصارت بعد خمس سنوات عاصمة لويزيانا .

ولكن ثمة ظروف عدة (إن نحن ذكرناها هنا أنقلنا على القارىء) حرمت الفرنسيين من هذه الميزات الباهرة ، فحينما كان المستوطنون الفرنسيون قلة من حيث العدد ، ولم ترسخ أقدامهم بعد في الأراضي ، اختفى معظمهم ، وتجمع من بقى منهم في جزء ضيق من البلاد ، أصبحوا الآن خاضعين لدولة أخرى غير فرنسا . أما الأربعمائة ألف فرنسي^(١) من سكان كندا الجنوبية فهم الآن بقايا أمة قديمة ضاعت في ثنايا أمة جديدة . لقد زاد عدد السكان الأجانب حولهم باستمرار من كل ناحية وتغلغلوا وسط سادة البلاد السابقين حتى صارت لهم الغلبة في المدن ، وجعلوا يعملون على إفساد لغتهم الفرنسية ، فهؤلاء السكان الجدد وسكان الولايات المتحدة شيء واحد الآن . لقد كنت على حق إذن فيما أكدته من قبل بشأن أن الجنس البريطاني ليس مقصوراً على حدود الاتحاد فقد سبق أن انتشر في الشمال الشرقي منه .

ولا شيء في الشمال الغربي يقابلنا غير بضع محلات روسية ليست بشيء^(٢) ، أما في الجنوب الغربي فالمكسيك تحول دون تقدم الأمريكيين الإنجليز في اتجاهها ، مما ترتب عليه أن صار الإسبان والأمريكيون الإنجليز الجنسيتين المتنافستين اللذين يقسمان الآن فيما بينهما أراضى الدنيا الجديدة . وقد تعينت الحدود التي تفصل بعضهما عن بعض بمعاهدة . ومع أن شروط هذه المعاهدة جاءت في مصلحة الأمريكيين الإنجليز فلا يخالفني شك في أنهم لا يلبثون طويلاً حتى ينقضوها ، فثم أقاليم ومديريات متراميات الأطراف تمتد وراء حدود الاتحاد في اتجاه المكسيك لاتزال إلى الآن خالية من السكان^(٣) ، وسيتجه أهالي الولايات المتحدة إلى السكنى في هذه الأقاليم النائية قبل أن يملأها محتلوها الشيوعيون . فسيستولون على الأراضي الزراعية ، وقيمون مؤسسات اجتماعية ، حتى إذا ما جاء الملك الشرعى بأخرى وجد الصحارى والقفار قد زرعت ، وقد استقر الأجانب في هدوء وسط أملاكه وأراضيه .

فأراضى الدنيا الجديدة من حق أول من يحتلها . فهي جزاء طبيعي لأسرع الرواد وأنشطهم . وحتى البلاد التي حفلت بالسكان من قبل قد تجد شيئاً من الصعوبة في حماية أنفسها من مثل هذا الغزو . وقد سبق أن أشرت إلى ما يجرى الآن في ولاية تكساس . فإن سكان الولايات المتحدة يهاجرون الآن باستمرار إلى تكساس هذه حيث يشترون فيها أراضى لهم ، ومع ذلك يحترمون أحكام قوانين البلاد ، إلا أنهم يقيمون فيها تدريجياً سلطان لغتهم ونظم آدابهم في الأخلاق والسلوك . إن تكساس لاتزال جزءاً من أراضى المكسيك ، ولكن سيأتى عليها يوم غريب لاتجد فيها مكسيكياً واحداً . فقد حدث مثل هذا الشيء نفسه كلما اتصل الأمريكيون الإنجليز بشعب من أصل غير أصلهم .

(١) أصبح عدد الأربعمائة ألف فرنسي هؤلاء الآن أكثر من ثلاثة ملايين .

(٢) اشترت الولايات المتحدة ألاسكا من روسيا سنة ١٨٦٧ .

(٣) هذه الأقاليم هي المكسيك الجديدة ويوتا وأريزونا وكاليفورنيا وقد سلمتها المكسيك إلى الولايات المتحدة بمعاهدة

جودلوب هيدالجو سنة ١٨٤٨ .

لا ينكر أحد أن الجنس البريطاني اكتسب نفوذاً عظيماً على سائر الأجناس الأوربية في الدنيا الجديدة ، وإنه ليفوقها بمراحل بعيدة حضارة وصناعة وقوة .. ومادام هذا الجنس لا يحيط به سوى المجاهل والأقاليم القليلة السكان ، ومادام لا يصادف عدداً كبيراً من السكان المتجمعين في طريقه ، حتى لا يستطيع أن يشق لنفسه مسلكاً وسطهم - فإنه سيظل من غير شك ينتشر . إن الحدود التي رسمتها المعاهدات لن تقف في سبيل هذا الجنس ، بل سوف تتخطى هذه الحواجز الوهمية في كل مكان .

ولاشك في أن موقع الجنس البريطاني الجغرافي في الدنيا الجديدة ملائم كل الملاءمة لانتشاره السريع . فوراء حدوده الشمالية تمتد الأقاليم القطبية الباردة ، وبعد بضع درجات من حدوده الجنوبية ، تمتد المناخ الاسترالي المحرق . فالأمريكيون الإنجليز يقطنون إذن في أكثر مناطق القارة اعتدالاً وأصلحها لسكنى البشر .

والمظنون أن زيادة عدد السكان العظيمة التي حدثت في الولايات المتحدة إنما حدثت بعد إعلان الاستقلال ، إلا أن هذا خطأ . فقد كان السكان يزدادون عدداً بالسرعة نفسها في نظام المستعمرات ، كما يزدادون اليوم ، أى أن عدد السكان في الولايات المتحدة قد تضاعف في اثنتين وعشرين سنة . ولكن هذه النسبة التي تصدق الآن على ملايين من الناس لم تكن تطبق في ذلك الوقت إلا على الآلاف منهم فحسب . فالحقيقة عينها التي لم يكن يحس بها أحد من قرن مضى أوضحت الآن جلية واضحة لكل ذى عينين .

إن عدد الإنجليز في كندا ، وهم يعيشون في كنف ملك ، يزداد ويتنشر بنفس السرعة تقريباً التي تزداد بها الجالية البريطانية وتنتشر في الولايات المتحدة ، وهم يعيشون - كما لا يخفى - في ظل حكومة ديمقراطية . ففي أثناء حرب الاستقلال التي ظلت رحاها دائرة ثمانية أعوام^(١) ظل السكان يزدادون زيادة متصلة ، وبالنسبة عينها . ومع أنه كان ثمة شعوب هندية قوية متحالفة مع الإنجليز في ذلك الوقت على الحدود الغربية فإن الهجرة في اتجاه الغرب لم تتعطل بأى حال من الأحوال ؛ وبينما كان العدو يخرب شواطئ المحيط الأطلسي في كنتكي ، كانت الأجزاء الغربية في بنسلفانيا وولايته فرمنت ومين تزداد امتلاء بالسكان . هذا ، وأن حالة الاضطراب العامة التي أعقبت الحرب لم توقف اتجاه السكان عبر المجاهل والبرارى . وهكذا يتبين لنا أن اختلاف القوانين ، واختلاف الأحوال من حرب وسلام ، ومن نظام وفوضى ، لم يكن لها أى تأثير محسوس في استمرار تقدم الأمريكيين الإنجليز وترقيهم الوصول . وهذا أمر سهل فهمه . فليس ثمة أسباب عامة عموماً يكفى ليؤثر في جميع أرجاء إقليم واسع هذه السعة في وقت واحد . فإن جزءاً من البلاد يكون دائماً ملجأً أميناً من الكوارث التي قد تحمل بجزء آخر . ومهما بلغ الشر ، فالعلاج الذى في متناول الأيدي يكون أبلغ منه وأعظم .

(١) دارت رحى حرب الاستقلال التي أدت إلى انفصال الولايات المتحدة عن إنجلترا من سنة ١٧٧٥ إلى سنة ١٧٨٣

فلا يتصورون أحد إذن أن الحافظ الذى يحرك الجنس البريطانى فى الدنيا الجديدة مما يتسنى وقفه . فتفكك الاتحاد ، وما قد ينشأ عنه من العداوات وإلغاء المؤسسات الجمهورية ، والحكومة الاستبدادية الظالمة التى ستعقب ذلك التفكك ، قد تستطيع أن تعطل هذا الحافظ ولكنها لن تستطيع أن تمنع الشعب بحال من الأحوال عن أن يحقق فى النهاية ما هو مقدر له .

فليس ثمة قوة على الأرض تمنع المهاجرين إلى أمريكا من تلك البرارى الخصيبة التى تعد موارد لكل صناعة ، والتى تقوم حصناً حريزاً من كل احتياج . وأياً كانت الأحداث التى يأتى بها المستقبل ، فلن تحرم الأمريكين مناخهم ولن تنتزع منهم بحارهم الداخلية ولا أنهارهم العظيمة ، وتربهم وأراضيهم الخصيبة . كذلك لن تستطيع القوانين الفاسدة ، ولا الثورات والانقلابات ، ولا الفوضى نفسها ، أن تمحو غرامهم بالرخاء والازدهار من ناحية ، ولا ما فيهم من روح المغامرة من ناحية أخرى - وهما الأمران اللذان يبدوان صفتيهما المميزتين لهم ، أو أن تزيل عنهم العلوم والمعارف التى تهديهم الطريق .

ففى المستقبل غير المضمون حدث واحد مؤكد ، على الأقل . ففى زمن قريب - قريب لأننا نتكلم هنا عن حياة أمة - سينتشر الأمريكيون الإنجليز وهدمهم فى تلك البقاع الشاسعة الترابية الأطراف والممتدة من شواطئ المحيط الأطلسى إلى المحيط الهادى . ولعل الجزء الذى سيغفله هؤلاء الأمريكيون الإنجليز سيعادل ثلاثة أرباع أوروبا . ذلك إلى أن مناخ أوروبا ، ومزاياه الطبيعية لا تقل عن مزاياها . فجلى إذن أن عدد سكانها سيتناسب فى المستقبل مع عدد سكان أوروبا . ولما كانت أوروبا موزعة على أمت كثيرة ، وتمتد شملها حروب تكاد لا تنقطع ، ونشأت من آداب العصور الوسطى الوحشية ، فقد بلغت كثافة السكان فيها ٤١٠ نسمة فى كل فرسخ مربع . فما الذى يمنع الولايات المتحدة من أن يزداد عدد سكانها حتى يبلغ مثل هذه الكثافة على مر الزمن ؟

لا بد من مرور عصور عدة قبل أن تتغير الملامح والقسمات التى تميزت بها سلالات الجنس البريطانى وفروعه المختلفة التى فى أمريكا ، وتفقد وحدتها . ولا يتسنى لأحد أن يتكهن بالوقت الذى يمكن أن يقوم فيه تفاوت دائم بين سكان الدنيا الجديدة . وأياً كانت الفروق ، فإنهم كلهم سيحتفظون فى الوقت الحاضر ، على الأقل ، بأحوال اجتماعية متشابهة ، وسيظلون يشتركون فى العادات والآراء التى ترتبت على قيام هذه الأحوال الاجتماعية المتشابهة .

كانت رابطة الدين قوية كل القوة فى العصور الوسطى حتى بلغت بها قوتها أنها جمعت وحدها مختلف سكان أوروبا جميعاً فى حضارة واحدة . وثم أُلِفَ رابطة أخرى غير الدين تربط الإنجليز الذين يعيشون فى الدنيا الجديدة ، فى عصر انتشرت فيه النزعة إلى حب المساواة بين البشر أيما انتشار . لقد كانت العصور الوسطى عهداً انقسم فيه كل شئ .

فكان كل شعب ، وكل محافظة وكل مدينة ، بل وكل أسرة ، تحرص كل الحرص على فرديتها التي تتميز بها . أما في العصر الحاضر ، فإن نزعة أخرى مناقضة لتلك ، قد أخذت تسود . فظاهر أن الشعوب قد أصبحت تتجه نحو الوحدة . فوسائل الاتصال الفكرى تربط الآن أقصى أجزاء بعضها ببعض ولم يعد الناس يستطيعون أن يظلوا غرباء عن بعضهم البعض . ولا جاهلين بما يجرى في أى ركن من أركان المعمورة ، مما أدى إلى أن صار الفرق الذى بين الأوربيين الآن وبين سلالاتهم في الدنيا الجديدة أقل مما كان في القرن الثالث عشر بين مدن معينة لم يكن يفصل الواحدة منها عن الأخرى سوى نهر واحد ليس إلا . فإن كانت هذه النزعة إلى التماثل قد قربت بين أمم أجنبية بعضها من بعض ، فإنها من باب أولى ، يجب أن تمنع ذرارى الشعب الواحد من أن يصبحوا أجنب وأغرابا بعضهم عن بعض .

فلا بد أن يأتى وقت إذن يستطيع فيه مائة وخمسون مليوناً من البشر أن يعيشوا في أمريكا الشمالية ، متساوين فيما بينهم ، وكلهم ينتمى إلى أسرة واحدة ، وترجع نشأتهم إلى سبب واحد ، ويحافظون جميعاً على حضارة واحدة ولغة واحدة . ودين واحد ، وعلى عرف وعادات واحدة ، وتنتشر بينهم الآراء على نحو واحد ، وتتجلى لهم كذلك في ألوان واحدة . هذا كله صحيح ولاشك فيه . هذه حقيقة جديدة على العالم ، وغبناً يحاول الخيال أن يتصور مداها . أما باقى الحقائق فموضع شك .



في العالم الآن أمتان عظيمتان . الروسيون والأمريكيون . بدأتا من نقطتين مختلفتين ، ولكن يبدو أنهما تتجهان نحو هدف واحد بعينه . فقد نشأتا كلتاهما في الحفاء نشأة مرموقة دون أن يفتن إليهما أحد . فبينما كان العالم مشغولاً عنهما بغيرهما من الأمم ، إذا بهما تقفزان فجأة إلى الصدارة ، وتتوأ كل منهما مركزها في الصف الأول من الدول . فكأن العالم قد سمع بميلادهما وبعمظتهما معاً في وقت واحد .

ويظهر أن سائر الأمم قد وصلت . أو كادت أن تصل ، إلى حدودها التي رسمتها لها الطبيعة ، ولم يبق لها إلا أن تعمل على صيانتها والحفاظة عليها . أما أمتا الروس والأمريكيين فما زالتا تنموان فعلاً ، على حين توقفت الأمم الأخرى عن النمو ، أو هي لم تعد تنمو إلا بكل جهد ومشقة . أما هاتان الأمتان فتقدمان وهدما في سهولة وقوة في طريق لم تستطع الأبصار بعد أن تدرك منتهاها ؛ فبينما الأمريكي يجاهد ضد البرارى وضد الهمجية ، يناضل الثانى ضد الحضارة ، بكل ما لديه من عدة ومن سلاح . فتتوح الأمريكي تتم بواسطة الحراث بينا تتم فتوح الروسى بحد السيف . فالأمريكي يعتمد على رعايته لمصلحته الشخصية في تحقيق أغراضه ، ويدع مكاناً لقوى أفراد الشعب غير الموجهة ، ولفطرتهم السليمة . أما الروسى فيركز بشكل ما كل سلطات المجتمع في يدى شخص واحد . فالأول وسيلته الأساسية في العمل الحرية ، أما الثانى فوسيلته العمودية . لقد بدأ كل منهما من نقطة غير التي بدأ منها الآخر . فسيلهما مختلفة ، ومع ذلك يبدو أن العناية الربانية قد شاءت ، لأسباب تخفى علينا ، أن تضع في يدى كل منهما مصائر نصف هذا العالم .